القومية المصرية
قراءة فى وضوح البداهة



تأليف : د. السيد نصر الدين السيد

تقديم : د. نعمات أحمد فؤاد

الطبعة الثانية

2009

إهداء إلى أهل أمتى ... "الأمة المصرية"

تقديم الطبعة الثانية

اليوم، وبعد مضى حوالى العشرين سنة على إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أنظر حولى أتأمل أحوال أمتى، **"الأمة المصرية"**، فلا أرى تغيرا فى الظروف التى دفعتنى لكتابته.

أنظر حولى فأرى أزمة تسيد **"ثقافة الملة"**، بما تنطوى عليه من إنغلاق على الذات وإستكبار على مشاعر الآخر وتجاهل لإحتياجاته، على **"ثقافة الوطن"**، بما تعنيه من إنفتاح على الآخر وإستيعاب له فى شركة الأرض والحياة. وهى أزمة تتعدد مظاهرها ما بين مناوشات كلامية على الإنترنت، إلى إحتقانات طائفية ما نكاد نتجاوز أحداث واحدة حتى تدهمنا واحدة أخرى، ومرورا بتعقيدات بيروقراطية لامبرر لها فى أغلب الأحيان. أما على مستوى علاقة بعضنا بالبعض الآخر فنرى **"ثقافة الملة"** وقد راحت تنشئ حدودا نفسية مصطنعة بين أعضاء جسد أمة واحدة هى الأمة المصرية. فهى من ناحية تحد من قدرة البعض على الإقتراب من الآخر سعيا وراء تفهم همه الذاتى. وهى من ناحية أخرى تدفع بالآخر إلى الهروب إما داخليا بالإنكفاء على الذات أو خارجيا بهجر الوطن. وتنبع خطورة هذا الأمر من كونه يتعلق بوحدة وتماسك الكيان المصرى الذى لم يعرف، منذ نشأته كأول **"أمة – دولة"** فى تاريخ الإنسان على أيدى الفرعون مينا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، أية تشقق أو تصدع فى بنيته. وقد كان تماسك وتجانس الكتلة البشرية للأمة المصرية عبر تاريخها الطويل واحدا من أهم الملامح الفريدة التى تميزت بها هذه الأمة. هذا التجانس الذى يقول عنه جمال حمدان فى دراسته الموسوعية عن شخصية مصر: "منذ فجرالتاريخ، يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل ... متجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسمية. وقد ظل محافظا على هذا التجانس إلى يومنا هذا دون أى إبتعادات ملموسة عن النمط الأول أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة". ولقد أدت وحدة وتماسك الكيان المصرى إلى نشوء مفهوم **"الوطن"** كواحد من أول وأهم الإكتشافات العبقرية التى أهدتها الأمة المصرية لحضارة الإنسان. مفهوم **"الوطن"** الذى ينتمى إليه كل أفرادها ويدينون له بالولاء فتجاوزت بذلك ضيق الإنتماء إلى القبيلة والعشيرة أو الطائفة الذى مازال يحكم سلوك مايجاورها من الأمم. ويذكر لنا التاريخ أن تعدد آلهة المصريين فى الزمان الأول لم يؤد إلى تقاتلهم، كما كان الحال عند شعوب أخرى، بل حولته الذهنية المصرية إلى نظام يحفظ تعدد الأدوار وتناغمها فى إطار موحد هيأ تلك الذهنية لتقبل فكرة التوحيد.

إن تسيد **"ثقافة الملة"** على **"ثقافة الوطن"**، بما تعنيه من إستلاب الوعى بمفهوم الوطن وبجوهر المواطنة، وتحت أية حجة كانت، لن يؤدى فى نهاية المطاف إلا إلى إضعاف "الجهاز المناعى الحضارى" للوطن، وتدعه يقف مجردا من أى دفاع تحت رحمة تيارات وافدة وغير مبرأة تهب عليه من كل الإتجاهات وهى حاملة فى طياتها قيما غريبة عن صلب تكوينه، وساعية بخبث ودأب على غرسها فيه لتغيب هويته ولتفتيت تماسك بنيته.

أنظر حولى فأرى تعرضها لهجمة شرسة تسعى لإستلاب مكونات **"قوتها الناعمة"** التى يمثل الإنتاج الثقافى المصرى بشتى صوره واحدا من أهم مكوناتها. وهى القوة التى كانت واحدة من أهم عناصر قدرتها على التأثير والتفاعل البناء مع محيطها الخارجى إقليميا كان أو عالميا.

لهذا كله كانت هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب طبعة زودتها بالعديد من الصور التى تدعم الفكرة وتوضح المضمون وأضفت فيها فصلا جديدا يؤصل علميا لمفهوم "القومية المصرية" ولدورها المنشود فى تهيئة المجتمع المصرى لملاقاة تحديات الألف الثالثة.

د. السيد نصر الدين السيد
مونتريال- كندا
82 يناير 2009

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الدكتورة : نعمات أحمد فؤاد

بسم الله الذى وحدته مصر منذ ألوف السنين، فكانت حضارتها تدينا وتدينها حضارة.

باسمك أستهل كتابة مقدمة كتاب

"القومية المصرية: قراءة في وضوح البداهة" للدكتور السيد نصر الدين السيد.

انه كما قال صاحبه: إعادة للصياغة.

ونحن بحاجة إلي إعادة الصياغة أكثر من مرة.

فللإبحار في تاريخ مصر هدف كبير.

ورسم هذا الهدف..وتصويره..والتعبير عنه، يحتاج.. إلي "إعادة الصياغة".

فإذا كان الإبحار، ضد التيار، كانت المهمة أصعب، وليس أشق علي النفس من التصدى للضلالة.. والتحدي لمن يحاولون "استلاب الوعي وتعتيم الضمير"، وهم كثيرون في الخارج.. وفى الداخل أيضا.

هذا الكتاب عودة إلى المنبع.

وإذا كان المنبع نيلا.. صافيا.. نميرا ، يحلو للمصرى أن يسافر فيه ليحيا..وأن يعود إليه فيكون العود، أحلى.

هذا الكتاب تاريخ وثائقى احتشد له كاتبه في حب اقترب من الوجد الصوفى.. هذا الكتاب [مكابدة وحال..خفق للروح حتى "التجلى" وتوحد مع النفس حتى "الوصال"

هذا الكتاب تاريخ وثائقى امتزج فيه الشعر بالحقيقة دون أن يمس منها التكوين بل كان حلي لها وتاجا علي الجبين، فهو أستاذ جامعى تعرف أكاديميته التقنين فى التدوين.. حتى حين فكر قلمه بصوت عال في الصفحات الأولى، فنثر المذخور من البسمات والجراحات.. من الأفراح والأتراح، وغاصت الرؤية في مسيرة التاريخ المصرى بمآسيه ومعاليه.. حتى في حياة كل يوم.. بدأ من العصر العتيق قبل الأسرات وانتهاء بالعصر الحديث حين وزع الوقائع والمواقف والمشاهد و الأحداث، خرجت ملحمة شعبية، أو كما قلت يوما:

أيام حلوة وأيام مرارتها تعصر العمر وتصهر القلب

أيام حلوة

وأيام تجرح وجه النهار
أيام هادئة
وأيام لها إعصار
هزيمة
نصر
قهر
أسر
ضيق
يسر
وتحتوين هذا كله
وتظلين بكل الجلال
مصر

إن حقيقة مصر إذا نفذ إليها كاتب، و"اتصل" عاشق، طرحت فى النفس وردا فترنم ورقرق التعبير شعرا ومرقي صلاة.

إنها مصر.

وكم من عشاق هاموا وقالوا.. والقول فيها نشيد يحلو علي الترديد. ليست المسالة مسالة وطن وان كان فريدا في حياته.. فريدا في مولده قبل الزمان بزمان. ليست مسالة وطن .. وعلي رأي أحد العشاق .. صلاح جاهين:

ولا كل من كان لها خارطة.. قالت أنا بلد
الرك علي المدينة والعمران

أقول الرك علي بناء الهرم والمعبد والمسجد.. الرك علي بناء الإنسان.. عقلا وروحا كان بناء الإنسان. فكما زرعت مصر الأرض بالحب
زرعت القلب بالحب
وزرعت الروح بالدين

زرعت حتى الحجر حين جملته بالنقش والنمنمة والتشكيل، فكان الحجر في يديها، نوعا من الشجر روته بالرؤى والألوان وانزعته بالمعني والقيمة فخف وشف وكاد يبين.

وكتبت مصر وعبدت ووحدت وقالت بالضمير فرشدت مسيرتها واستقامت سيرتها حين عرفت الثواب والعقاب ونصبت الميزان وقالت بعودة الروح والحياة الاخري .. وتجئ بعد هذا الأديان السماوية فتكون مصر القاعدة العريضة لها والبيئة الحضارية وتزكو الأديان فيها.. وبها "مسيحية" و "إسلاما" كما لم يفعل بلد آخر في الدنيا بما فى ذلك فلسطين والحجاز، فيأوى إليها عيسى، ويدعو لها سيد المرسلين محمد علية السلام.

تكتب مصر المسيحية وتدخل فيها كثير من رموزها ومضامينها هي ويؤرخ العلم المسيحى بميلاد المسيح.

وتؤرخ مصر بموقعة الشهداء التي خاضتها.. اعتدادا بذاتها وما بذلت.

وتخوض فى الإسلام معارك الحرب والسلام .. فتجمع مصر الحديث وتجود القرآن وتنغم الآذان وتعطيه الرجال العلماء وتهديه الأزهر ومتحف الفن الإسلامي بعاصمتها القاهرة.

أن نصف تراث الإسلام في وحدها تحمى وتصون.

والنصف الآخر موزع علي العالم شرقا وغربا.

حتى قاموس العربية الأكبر "لسان العرب" وضعه ابن منظور المصرى.

رحلة طويلة ومثيرة يمضي معها المؤلف مستمعا إلي "مانتيون" و "الجبرتى" و "ابن أياس" وسائر من أرخوا لها على مر العصور يحلل ويستشف ويضيف.

ويظل الكتاب مفتوحا.

كتابه وكتاب مصر يتيح لكل عاشق ان يكتب فيه فصلا جديدا.. شيقا وفريدا.. ريقا شديدا.. طريفا وتليدا.. وتصفو مصر.

ويروى النيل.

فلا يشبع القارئ والسامع علي كثرة العب وطول الرشيف.

د. نعمات أحمد فؤاد

الإسكندرية 1411 هـ/1990 م

والفضل يعزى لأهله

[مقدمة الطبعة الأولى]

والفضل في هذا الكتاب يعزى للإنسان.. إنسان مصرنا الأمي البسيط الذى وإن جهل الكتابة بالحرف والكلمة.. فإنه كتب تاريخها بالفعل والعمل.. بالصبر وطولة البال.. وحمل الأسية ... إنساننا البسيط الذى أودع حكمته أمثالا يحكيها... ومواويلا يغنيها ... وحكاوى يقصها... ورموزا ينقشها... وتقاليدا يحفظها ... وسلوكيات يحتذيها.

والفضل فى هذا الكتاب يعزى لرواد أضاءوا أضاءوا لنا الطريق لفهم أنفسنا ... نحن المصريين ... وتطول القائمة ... قائمة رواد الوعي بالهوية فى عصرنا الحديث ... تطول لتضم رفاعة رافع الطهطاوى وأحمد لطفى السيد ... ومحمد حسين هيكل ... ومحمود مختار و ,.. وسيد درويش... وسلامة موسى ... وصلاح جاهين و ... وسيد عويس و ... ولويس عوض ...

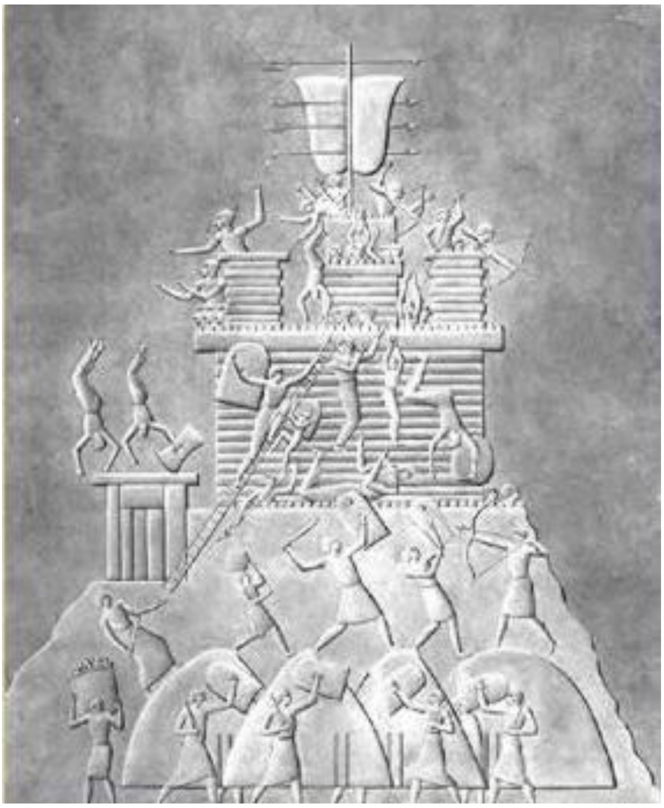
ويسعدنا حظنا فنتعلم على أيديهم أبجديات قراءة التاريخ ... فقد علمنا حسين فوزى كيف تكون الملاحة فى تاريخ الأمة، وكيف يكون الإبحار... وعلمنا جمال حمدان أسرار عبقرية الأمة وكيف تتواصل الجغرافيا بالتاريخ.. وعلى أيدى نعمات أحمد فؤاد عرفنا كيف يكون الحب سبيلا للكشف عن روح الأمة وعن شخصيتها ... وجاءت كلماتها الندية لترطب النفس التى أجهدتها مشقة الترحال في دروب التاريخ ... جاءت فكانت قناديل هادية للمسافر وزادا للطريق.

د. السيد نصر الدين السيد
شوتس – الإسكندرية
سبتمبر1990

المحتويات

الفصل الأول

الفــاتحـة



﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾

(سورة الحديد 25)

﴿لا تظنوا أنى جئت ألقى سلاماً على الأرض . . ما جئت لألقي سلاماً . بل سيفاً﴾

(متى 10 - 24)

كلمة للقارىء

يقولون لمن يود فى السعي وراء الحقيقة، أن عليه الإختيار بين طرق ثلاثة: **طريق العقل** ... ووسيلته منطق متقن ووسائل محكمة للنظر فى طبائع الأمور، و**طريق الملاحظة والمشاهدة** ووسيلته نظرة فاحصة ... مدققة ... راصدة لدقائق الأشياء. وكلا الطريقين جوهره المفترض هو الانفصال بين الذات والموضوع. أما الطريق الثالث فهو **الذوق** ... طريق الصوفية ... ووسيلته الحب الخالص، وجوهره الإتصال والتواصل بين الذات والموضوع ومرماه بلوغ الحقيقة بتمام الإندماج.

وأقول أنها طرق ثلاث لاغنى عن أي منها إن كان الموضوع مثل موضوعنا، فموضوعنا هو مصرنا فى كلها الواحد.. زمانا ومكانا وإنسانا. فالحب تتحول كلمات المؤرخين، ببرودة التقرير فيها، تتحول إلى حدث نعيشه وواقعة نحياها وتجربة نخوضها.. فنفرح مع أهلنا بالإنتصار.. ونتألم للإضطهاد ... ونثور للظلم ... ونخرج مع الثائرين ... ونذوق معهم، بأنفسنا، صدق المشاعر وزخم الإحاسيس. وبالعقل نستشف المعنى والمغزى وندرك جوهر الوقائع وما وراء تعاقب الأحداث ونكتشف القانون ... قانون التاريخ ... تاريخ الأمة. وبالملاحظات تتأكد النتيجة ويتجلى التواصل بين الماضى والحاضر ... وتبرز عبقرية الإستمرار فى تاريخ الأمة التى كتب عليها الخلود والبقاء.

***

هـذا الكتـاب.. لمـاذا

من نحن ؟ ... وتبقى فى النفس مرارة بعد أن يغادرها السؤال ... إنه، الحق أقول لكم، سؤال عن المحنه ... بل هو المحنه فى سؤال.

ضاعت الإجابة ... فسلب من بين ضلوعنا الوطن وفقدنا الإنتماء ... فأضحى غريبا هو عنا، وأضحينا فيه غرباء.

لذا كان هذا الكتاب ... دعوة ... لجولة ... فى جنبات الذات ... لضحد فقه الإحباط ... لتنفيد فلسفة الهزيمة وكشف منطق الإنكسار.

ضاعت الإجابة.. فكانت هزيمة الروح، وكان تهدم الكيان، فغاب عن حاضرنا ما كان، وغشى اليأس ما يمكن أن يكون.

لذا كان هذا الكتاب ... دعوة ... لكشف الغمة عن روح الأمة ولإزالة الغشاوة عن جوهر الروح.

ضاعت الإجابة ... فتناءت الروح عن سرها، وحيل بين النفس وكنهها ... لذا كان هذا الكتاب ... مكابدة وحال ... خفقا للروح حتى التجلى ... وتوحد مع النفس حتى الوصال.

وفى النهاية عنه أقول وأوجز العبارة: **إنه كلمة عن وضوح البداهة ودفاع عن مصرية المصريين ... ودعوة لمواجهة فكر الضلالة وللتصدى لإستلاب الوعي وتعتيم الضمير**.

إنه، وقد فاتنا شرف الريادة، محاولة لصدق الرؤية، ولإعادة الصياغة. فطوبى لمن وعى ... فسعى ... وعاش فى الحب صدق الهوية.

***

الفتــوحات المصرية ..تداعيــات عشق صوفية

أنا الذى مشيت أدور بإشتياق وحنين

.......................على مصر

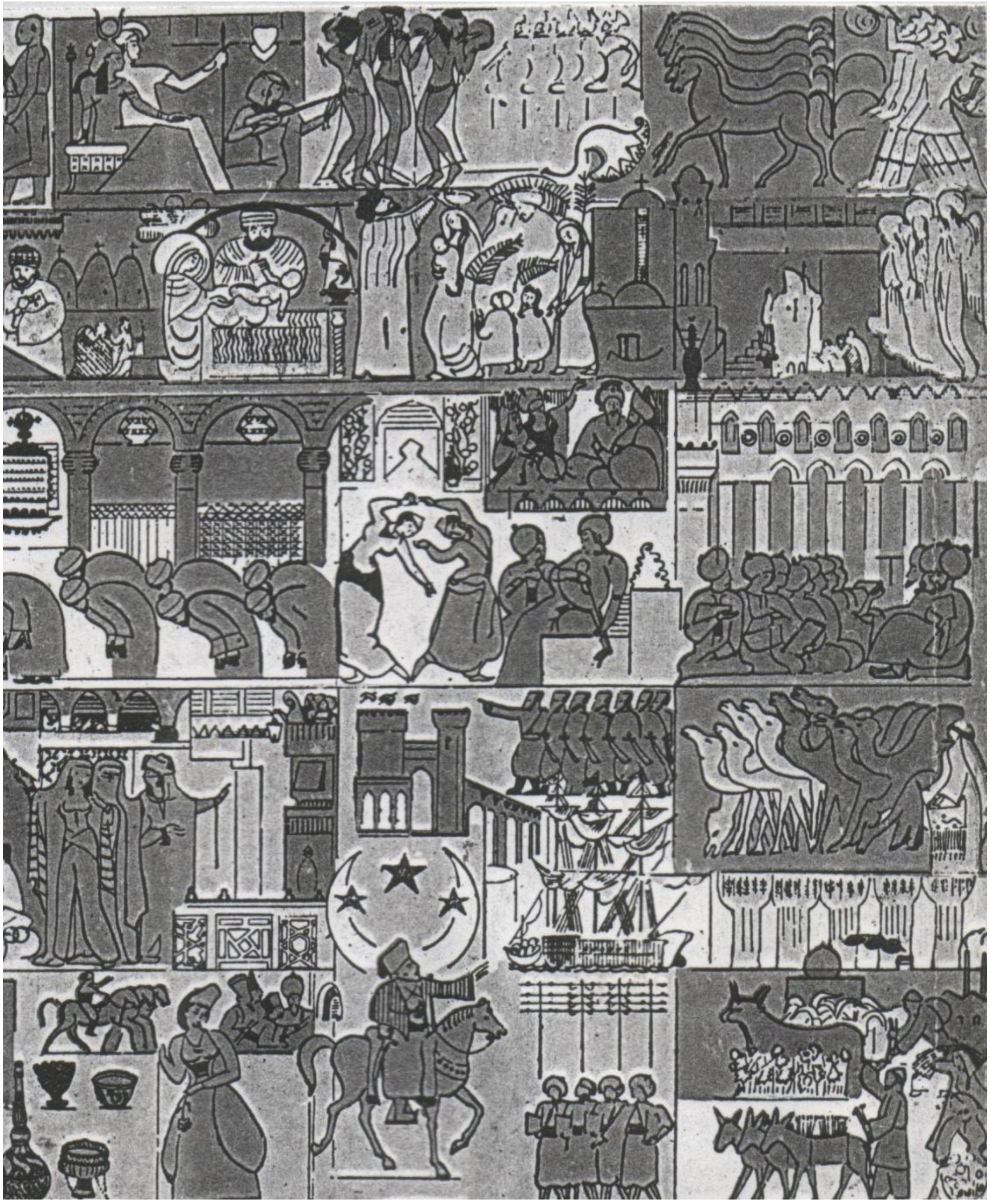
والمشي خدنى من سنين .. لسنين..

لحد ما سنينها وسنينى.. بقم واحد.

وحضرت شاهد عيان

مولد وموت.. ملايين.

صلاح جاهين



وقائع وأساطير.. حقائق وخرافات.. مخطوطات.. رموز هيروغليفية على جدران معبد قديم.
كودية وزار.. عديد وموال .. حكم وأمثال.. سير أبطال .. نوادر شطار .. وشم أخضر وحنة حمراء لتخضيب الكفوف.
ضريح ولى .. قبر قديس .. تابوت مومياء .. صندوق نذور .. شمعة توقد ومتحف يزار.
أم النور وإيزه .. دميانة والست نفيسة.
آلهة وأولياء .. قديسين وشهداء .. ريشة وقلب وميزان حساب .. صراط مستقيم وملكوت سماء.
سبيل مياه .. خانقاه .. دار مملوك فى قلب المدينة ودير رهبان فى جوف الصحراء.
مناظر مقبرة من "واست" (الأقصر) ورسوم مقبرة في "الهو".
تمثال من الديوريت لفرعون جليل و أوشابتى صغير لخدمة الأمير.
كتاب الموتى ومتون الأهرام .. كرازة مرقص الرسول، ولفظ الجلاله على قنديل في جامع السلطان.
مئذنة رشيقة .. مسلة رقيقة .. صينية مكفتة .. مشكاة مذهبة .. زخارف منبر زاوية صغيرة وأيقونة للعدرا تحنو على عيسى المسيح.
آنية من البدارى وحاملات قرابين.. صحاف من نقادة .. صلايات وجعارين.
خمسة وخميسة .. عين حور .. خرزة زرقاء وبخور.
تكبيرات العيد ومردات الشماس .. آذان وقداس.
آمين .. آمون .. كيرياليسون .. بسملة .. صلاة ربانية .. رهبان وصوفية .. باخوم وذو النون.
إبن الفارض .. أثناسيوس و'خناتون.
سورة الرحمن .. فاتحة القرآن .. قانون إيمان ومزمور لآتون.
وتتجسد روح التاريخ فى أقنوم أحد .. ما سره الخفى .. يتداعى إلى الذهن السؤال .. تعددت طرق الطالبين والمطلوب واحد .. زاغ البصر.. والعقل هوى .. فإختارنى الطريق لنفسه .. قصدت بلوغ المراد .. فكان الحب زادى وكان العشق منهجى .. فهونا لا تلم إن شطت الروح أو أسرفت .. فمغفورة له الخطايا من أحب كثيرا .. وما على العاشقين عتاب .. وتداعى كل الزمان إلى لحظة .. وكان الكشف .. فتجلت الملحمة :

أخذ جرايته .. حبات بصل .. بضعة أرغفة وأقداح جعة .. وراح يستأنف البناء .. ويبقى أبدا العمل .. مثوى الإله المتأنس الخالد فى الملكية مثل رع فى السماء .. الرائع فى القوة .. المقدس فى مظاهره .. الملك خوفوي.
إكتمل بدر الحب .. ودقت الكوس والطبلخانات .. فرح برؤية رماحة المحمل فى زهو الألوان ورشاقة المهارة .. فصفعته على قفاه، المماليك اليلبغاوية، وعبثت فى اللحية وحلت العمامة.

ألهبت ظهره سياط جابى ... تورمت قدماه من خيزرانة ملتزم ... فذهب ليغازل الطين بفأسه وينتج الحنطة لبطون الأعيان.

إزرق لون عمامته ... إلتف حول خصره الزنار ... ركب حماره عرضا فهتف من منبر الأزهر بوحدة الصليب والهلال وراح يقاتل الأغيار.

شرب عصير الليمون فى خيمة المولد ... سمع القرآن ومدح الرسول ... أخذته فى حلقة الذكر الجلاله فحج إلى العرابة ... حمل سعفة نخيل في حد الزعف وهلل لعيسي المسيح فى طرقات أورشليم.

ذكر الحقيقة أضحك الحاضرين بما فاه ... طرده القاضى الرومانى لمحكمة سكندرية بتهمة الحط من هيبة القضاة ... حرمه من حق الدفاع فذهب إلى المجمع المسكونى ليدافع عن منطق الإيمان ومضى يتشفع فى العوام ... ويقرع السلطان.

سمع صياح الجاويشية وشدو الشبابة السلطانية ... جرى إلى باب النصر فشاهد سلطانه بشعار السلطنة نازلا من قلعة الجبل ... دعا له بطول الأجل وعاد ليبيع البسبوسة في حارة برجوان.

كتب تسعا من المظالم البليغة الى رنزى بن مرو السمير الأكبر لفرعون مصر ... بعث برسائله إلى قاضي الشريعة الشافعي الإمام ... أوقد شمعة لمارمينا العجايبى ... كنس جامع السيدة ... قرأ عدية ياسين وواظب على حضور مدارس الأحد.

ذهب مع فيلق بتاح حدود الوطن ... عبر بوابة إيموحتب حارب عامو الحريوشع وقبائل التحنو والتمحو ... قاتل وإنتصر ... عاد الى الدار... قبل الرفيقة... دلل الصغيرة... كتب الإنجيل على بردية... نسخ البخارى ومضى ليكمل نقش نصا على جدار.

أقطعه الفرعون أرضا ليزرع الكتان ... منحه بلطة من ذهب تقديرا للبسالة فسرقه سلطان العثمانلى من الوطن لأنه يرخم يكفت ويبنى بمهارة.

سموه جعيدى ودعوه حرفوش فهز القحوف وكتب الفاشوش فى حكم قراقوش ومضى مع العياق فى أزقة القاهرة يجرس الامير.

ناداه العثمانلى فلاح خرسيس فتظاهر فى عابدين وكرنك فى بولاق ... صنع بارودا فى الخرنفش ... صب المدافع فى الحسين وراح مع زعر الجمالية ليقاتل الفرنسيس.

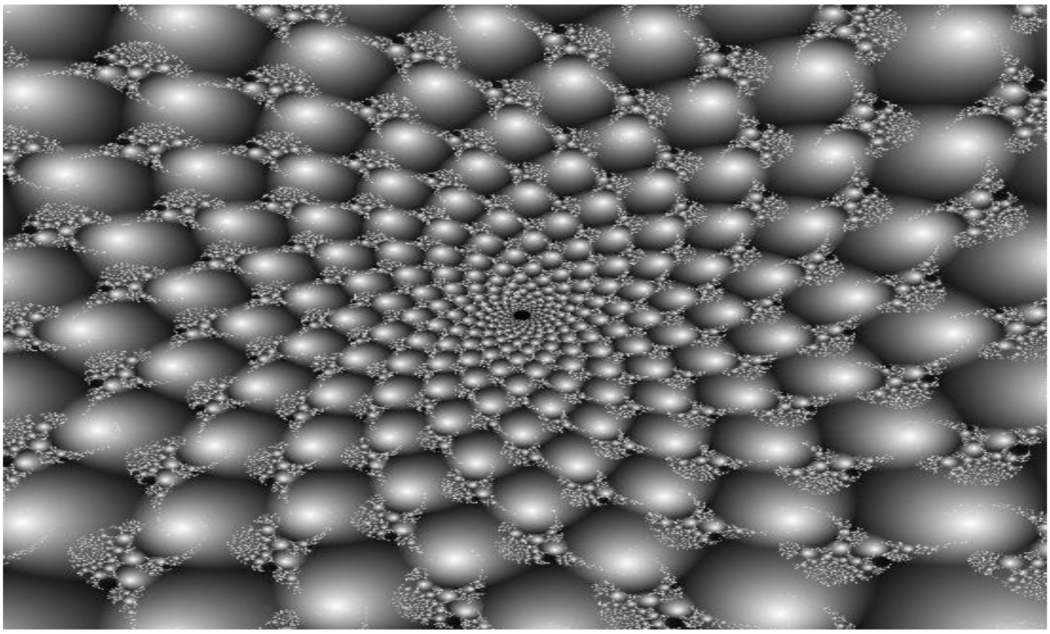
سكر فى الخليج حتى الصباح ... تهتك مع الصبية وغازل النسوان ... جاءه فى الفجر صوت الآذان فأدى الفريضة ولحق بأهل الطريقة ... أوقد شمعة ... أقام التماجيد وأمسك قادوما ليحنن الحديد.

الفصل الثانى

القومية المصرية ... التجليات

هل مصر موميا جميلة صورتها فوق النعش؟
يعشقها مجنون ينادى عليها ولا تطلعش؟
هل مصر نار صفصفت والنفخ فيها محال ....
والأرض نشعت علي رمادها استحال أوحال؟
سألت أنا الرافعى كان عجز ولا بيسمعش
لكن عينيه كانوا يحكولى قصص ما أشبعش
بقولولى ما تخفش
مصر بخير وعال العال

صلاح جاهين



فى البدء كان الإنسان

"مصر هبة المصريين"

محمد شفيق غربال

فى البدء كان الإنسان... وكانت الأرض وطنا عبقرى المكان ... وكان اللقاء فتلاحما وتصارعا تحابا وتعانقا توحدا فقامت الهوية لاهوت أبد وكانت ولادة الكيان.

فإن نحينا منطق اللفظ لنستنطق بلاغة الأرقام، ونظرنا إلى التاريخ وهو يكتب خمسين قرنا من عمر الأمة، لوجدنا ثلاثين منها خالصة المصرية (3200 ق.م – 332 ق.م) فيها تجلت القومية أبجدية للروح ونحوا للضمير. ويومها، فى مصرنا القديمة، كان المصريون هم الناس (**رمثو**) ولم تكن عنصرية بل كان وعيا بالقيمة وشعورا بالغيرية فى تكوين الذات وتشكل الوجدان.

واليوم وبعد مضي أكثر من عشرين قرنا علي ترتيلة الوداع فى معبد إيزه وبعد أن سكتت أصوات الكهنة والكاهنات وإنقطعت المواكب وموسيقى العازفين.

اليوم وبعد أن جاء الأغيار بشرا افكار فتبدلت العقيدة وتغير اللسان.

اليوم نقف ويؤرقنا السؤال عما بقى وعما ضاع عما بقى من عصور النشأة وحقب التكوين وعما ضاع فى ثنايا التاريخ.

ونقف ننظر إلى التاريخ فى كليته نستشرفه فيأتينا بآيات التجلى وبمنطق الإثبات وتنكشف حقيقة القومية فى **وحدة شعور تدوم** وفى **إحساس بالذات قيوم**.

الحق أقول لكم تغير اللسان وتبدل الجسد ... فكان ناسوتا تحول ... وكان لاهوتا صمد ... إنه وضوح البداهة فى مواجهة فكر الضلالة ومنطق التعتيم.

أولى التجليات ... إحساس بالذات قيوم

"أمة تحيا خمسة الاف عام تستقل فيها 3500 سنة أي ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها أليست هذه الحقيقة يجب ان ندقها بالقدوم والمسامير فى رؤوس الشباب؟ ... أمة ألفية ... أطول الأمم تاريخا تعيش فى أكثر من ثلثي تاريخها مستقلة تنتقل بين الحضارات ..." [2-1].

نعم تلك هي الحقيقة وإن توارت حينا عن الأبصار وغيبتها عن الضوء ظلال شك وتعتيم ... إنها الحقيقة التى بقيت دوما كامنة فى ضمير الأمة وظلت جذورها ضاربة فى لاوعي المصريين... النزوع الى الإستقلال ... الإحساس الخفى بتفرد الكيان ... بتمايز البنيان ... ومقاومة الذوبان فى تيارات الوافدين ... إنها روح مصر الخالدة التى إنبعثت فى البدء فبقيت وأبت إلا أن تكون.

حكاية أم الدنيا

كان ياما كان
وعلى مدى الأزمان
بلد
وكان أول البلدان
بكرية الدنيا
لكن صلى على النبى
كانت ترضع أمها الألبان

صلاح جاهين

ومن **أونو** (عين شمس)... المدينة المقدسة ... **"أفق السماء"** ..."**مقر الآلهة المختار**" ... **"موطن كل معبود"** ... جاءنا سفر تكوين أم الدنيا

*فى البدء كان **"نون"***
وجود وحيدا فى الكون
*وكان **"نون"** محيطا أزليا ... مظلما*
*ومن **"نون"** خرج إله الشمس **"رع آتوم"***
الكامل ... المتكامل
خرج بقدرته الذاتية دون معين
لأنه كان
هو كل شيئ فى الوجود
*وإختار مدينة **"أونو"***
فجعلها مركزا للخليقة كلها
وعلى تل من تلالها
أوجد العلم من نفسه ذاتها
ونطق بأسماء الآلهة:
*فكان **"شو"** إله الهواء*
*وكانت **"تفنوت"** إلهة الندى*
*وبأمر **"آتوم"** تزوج **"شو"** بـ **"تفنوت"***
*فجاء وليدهما **"جب"** إله الأرضين*

*ثم قام "**شو**" بعمل عظيم*

ففتق الأرض قسمين عظيمين

بعد أن كانت رتقا

*ورفع قسمها الأعلى سماء فكانت الآلهة "**نوت**"*

*وتزوج "**جب**" إله الأرض من "**نوت**" إلهة السماء*

وجاءت الثمرة أربعة من الأبناء

*ذكران هما "**أوزير**" و "**ست**"*

*وأنثيتان هن "**إيزه**" و "**نفتيس**"*

ذرية جمعت فى تكوينها اللاهوت بالناسوت

وكتب عليها عمارة الأرض بالانسان

*فكانت "**إيزه**" لـ "**أوزير**"*

*وكان "**ست**" لـ "**نفتيس**"*

وكانت ذريتهم من الخلق

الذين هم أشباه للإله

فجزءا من جسده كانوا

وفيهم من روحه سرها المكنون



الإلهه "نوت" ربة السماء

وظهرت على وجه أرض مصر "**الرعية النبيلة**" ... "**رعية الإله رع**" وكان الناس (**رمثو**) "**شعب الشمس**" ... "**أبناء رع آتون**" ... "**كلماتهم نافذة وشفاهم عارفة وحكمتهم بلغت عنان السماء**"، وكانت مصر "**تاميرى**" ... "**صورة السماء**" و "**معبد الكون بأسره ومقر الديانات**". وهبط "**أوزير**"

ليتولى ملك مصر ويكون أول ملوكها ووارثا لـ **"جب"** إله الارض الذى أعطاه قيادة البلاد لفائدتها ووضع قبضته فى هذه الارض وملكه ماءها وهواءها وكل ماشيتها وكل ما يطير وكل ما يرفرف فوقها وحشراتها وحيوانات الصيد في صحاريها فصار كل ذلك مملوكا شرعا لإبن **"توت"** وكانت البلاد راضية بذلك عندما أشرق على عرش والده مثل **"رع"** حينما يطلع فى **"الأفق"**.

وهكذا كانت البداية خارج التاريخ وقبل أن يكون للزمن حساب وللتقويم وجود ... فقط عندما نجح ملك مصر العليا القادم من **"ثينة"** [2-2] الملك **"نعرمر مينا"** الملقب بـ **"عحا"** [2-3] فى إقامة الوحدة الثالثة بين مملكتي الشمال والجنوب ووضع على رأسه التاج المزدوج، ذا اللونين الأحمر والأبيض، ساعتها بدت عقارب الزمن فى الدوران وكانت أولى ايام التاريخ المكتوب.

وظهر إلى الوجود كيان فريد ظهر ليبقى بخصوصية متميزة فـ" فى مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عالية فى الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وأن أثر التمدن وآمارته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع، فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها. فأنظر إلى آثار منف وأبنتيها وعجائبها وأصنامها ودفائنها. وكانت منزل الملوك من القبط الاول والعماليق ومسكن الفراعنة" [2-4].

وبدأ عصر الإستقلال الأول ... بدأ ليدوم خمسة عشر قرنا ... ألف وخمسمائة سنة (3200 ق.م – 1675 ق.م) حكم فيها ثلاثمائة فرعون **"برعو"** كان كل منهم:

الصورة الحية لـ **"حور"**

ذو التاجين الأحمر والأبيض **"نبتى"**

سيد الوجهين البحرى والقبلى **"نسوت بتى"**

حور الذهبي **"حور نب"**

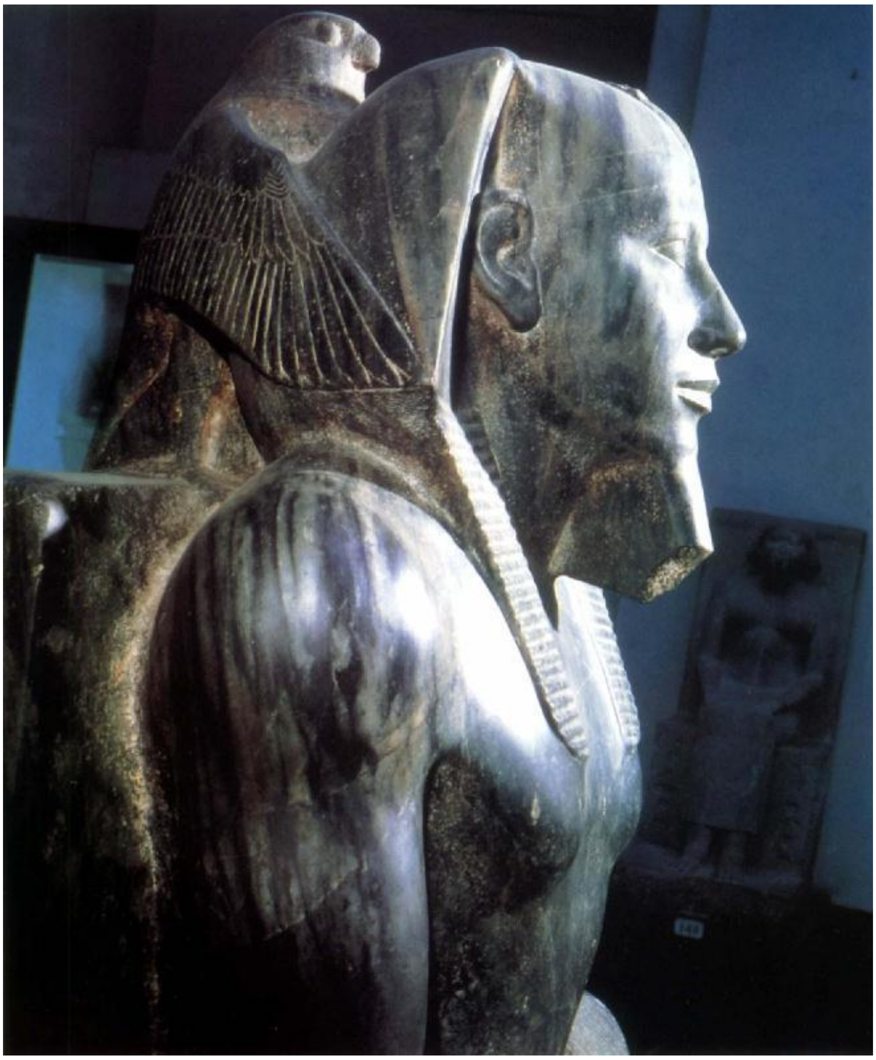
إبن الشمس **"سا رع"**

ثلاثمائة فرعون كان كل منهم يتباهى قائلا "قد عملت على أن تظل مصر فوق رؤوس الدنيا كلها" ... ثلاثمائة فرعون، ضمتهم أربعة عشر أسرة ملكية، هكذا حدثنا أول المؤرخين **"مانتيون"** المصرى ... كاهن معبد سمنود **"سب نتر"**، والكاهن الأكبر لمعبد **"أونو"** الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد (حوالى 280 ق.م) في مصر البلطمية وأبى إلا أن يدون تاريخ قومه منذ بدء

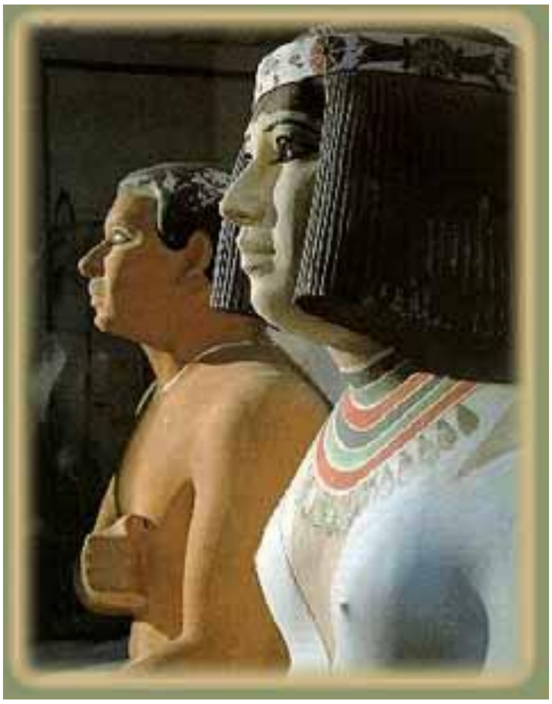
الخليقة وحتى نهاية الأسرة الثلاثين (378 ق.م – 341 ق.م) فى الـ "**إجيبتياكا**" ... أولى موسوعات التاريخ ... فبقى صوته حتى اليوم مسموعا وسار على هداه المحدثون.

ومرت خمسة عشر قرنا إختلت مصر فيها مع نفسها ... فقبعت فى واديها وانصرفت في خلوتها تعبد طرقا لحضارة الدنيا وتقيم أسسا لعمارة الانسان.

إختلت بنفسها وتغنت بالحجر فكانت أهرامها... مساكنا للأبدية ورموزا للبقاء وشواهد خلدت فكر من بقى وإيمان من كان ... هرم "**زوسر**" (الأسرة الثالثة – 2780 ق.م) ... هرم "**سنفرو**" (الأسرة الرابعة – 2680 ق.م) ... هرم "**خوفو**" (الأسرة الرابعة – 2680 ق.م) ... وكانت المعابد مقارا لآلهه وخزائنا للناموس وعلامات على الصراط المستقيم ... المعبد الجنائزى للملك "**مونتوحتبة**" (الاله مونت مرضى) الثانى (الأسرة الحادية عشر – 2052 ق.م) والذى يقع جنوب معبد الملكة "**حتشبسوت**" (1490 – 1469 ق.م) فى الدير البحرى بالبر الغربي للأقصر (واست)... معبد الملك "**سنوسرة**" (سى – ن – وسرة ، رجل الربة "**وسرة**" القوية) فى اللشت (إشت تادى) بالفيوم (الأسرة الثانية عشر – 1972 ق.م)... وكانت التماثيل صورا حية تجسد المعانى وتسمع الناظر بلاغة الحجر .... المهابة والجلال (تمثال الملك خفرع من حجر الديوريت الاسود – الاسرة الرابعة) الحيوية والوداعة (تمثالي رع حتب وزوجته نفرت من الحجر الجيرى – الأسرة الرابعة) و..و...



المهابة والجلال: تمثال الملك خفرع من حجر الديوريت الاسود – الاسرة الرابعة



الحيوية والوداعة: تمثالي رع حتب وزوجته نفرت من الحجر الجيرى – الأسرة الرابعة

إختلت بنفسها وإنفردت بثالوثها الخالد ... الارض، أسودها (**كيمى**) وأحمرها (**دشرة**) ... الماء متمثلا فى نيلها النهر الإله "**حعبى**" ... دائم الوفاء ... الشمس ... رع الإله فى مركبه، يقوم برحلته اليومية ... يشرق ... يغرب ... ولكنه عن أرض مصر أبدا لا يغيب. إختلت بنفسها وإنفردت بثالوثها فكانت الزراعة ... وكان التقويم ... وكانت الهندسة ... وكان علم الحساب... وكان التنظيم وكان فن الإدارة.

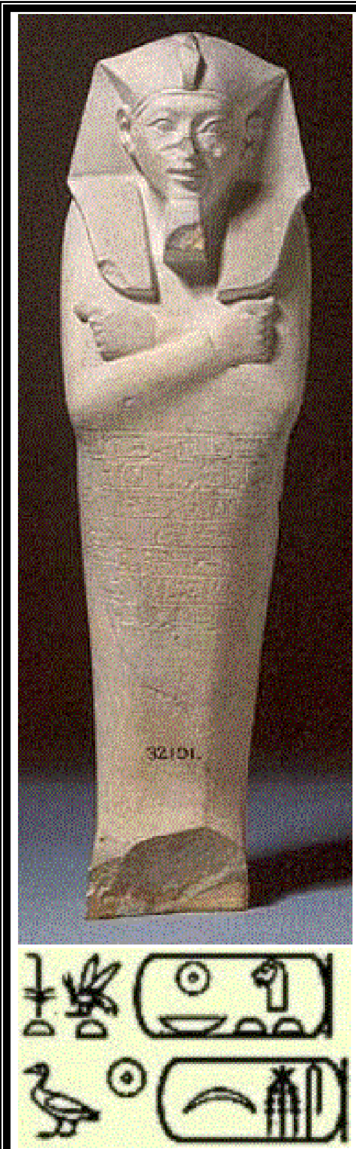
وكما إنصرفت مصر إلى عمارة الدنيا مضت أيضا فى عمارة الإنسان... تأملت فأسست أخلاقا تحتذى وأعرافا تتبع ومثلا عليا يسير على هداها فى حياته الإنسان فيضمن فى آخرته حسن المآل. وجاءنا نقوش المعابد ومتون الاهرام ... نصوص التوابيت والبرديات، بتعاليم "**بتاح حتب**" وزير الملك "**جد كارع-اسيسى**" (الأسرة الخامسة 2480 – 2340 ق.م) والنصائح الموجهة إلى "**كاجمنى**" (الأسرة الثانية عشرة 1991 – 1778 ق.م) وتعاليم "**خيتى بن داووف**" لإبنه "**بيبى**" (الأسرة الثانية عشرة) وإرشادات الملك "**بب كاو رع خيتى**" الثالث إلى إبنه "**مرى كارع خيتى**" الرابع (الأسرة العاشرة 2133 – 2052 ق.م) وتعاليم الملك "**أمنمحات**" الأول لولده "**سنوسرة**" (الأسرة الثانية عشر) فكانت عمارة الروح وكان فجر الضمير.

إختلت بنفسها وتقوقعت فى أرضها ولكنها لم تكن فى خلوتها كيانا هامدا أو جسدا بلا روح... بل كانت أمة حية لشعب فتي تتدفق فى عروقه فورة الصبا ورعونة الحياة ... فتصارع أهلها وتصالحوا ... ثاروا وإستكانوا ... أطاعوا وتمردوا ... تقاتلوا وتهادنوا ... تفرقوا وتوحدوا... تباعدوا وتقاربوا ... ولكنها كانت دوما فى قلوبهم وكانت أرواحهم عنها أبدا لا تغيب ... مصر الأرض والوطن و**"صورة السماء"**. أنجبت طغاة بالظلم جاروا ... فلم تعدم مخلصين بالحق قاموا... فما زالت كلمات **"إيبيؤور"** التى قرع بها أسماع الملك **"بيبى"** الثانى (الأسرة السادسة 2420 – 2280 ق.م) حية تشهد لقائلها بالسبق فى "قوله حق فى حضرة سلطان جائر. وتأتينا كلماته وهو يخاطب الفرعون قائلا: "لديك الحكمة والبصيرة والعدل...؟ ومع ذلك تترك الإضرابات وضوضاء المتعاركين تنتشر في البلاد، أنظر اليهم إن كل واحد يضرب الآخر، ولا يعبأ بالأوامر ... فهل تلقى راعيا يحب الفناء...؟... لقد كذبوا عليك فالبلاد تشتعل كالقش والناس على شفا الهلاك ليتك تتذوق بعض هذا البؤس بنفسك وعندئذ يمكنك ان تقول..." [2-5].

وفجأة، وأثناء حكم الفرعون المصرى **"ديومس"** (حوالي 1670 ق.م) تأتى لحظة النهاية لعصر الإستقلال الأول. وعنها يحدثنا أبو التاريخ المصرى **"مانتيون السمنودى"** قائلا: "وفى عهده، ولا أدرى السبب فى ذلك، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا من جهة الشرق غزاة مجهولو الأصل وساروا تملؤهم فى الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الإستيلاء عليها دون أن يضربوا ضربة واحدة. ولما تغلبوا على حكام البلاد، أحرقوا مدننا دون رأفة، وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالى بعداء قاس، فذبحوا البعض وساقوا زوجات وأطفال البعض الآخرين للعبودية ... وكان جنسهم عامة يسمى هكسوس، أى ملوك الرعاة، لان "هيك" تعني فى اللغة المقدسة ملك و"سوس" تعني في اللغة الدارجة راعى".

وهكذا يختتم عصر الإستقلال الأول بهجوم الرمال وغزو الصحراء للوادى الأخضر. إندفعت أسراب البرابرة الأسيويين بخيولهم وعرباتهم الحربية لتجتاح أمة آمنة مطمئنة. وهناك فى شرق الدلتا يقيمون ملكهم الدخيل وتبقى **"واست"** (طيبة-الاقصر)، عاصمة لمصر العليا، مستقلة فى أيدى المصريين. تبقى لتكون ملاذا ومأوى لروح مصر الناظرة، فى شوق ولهفة، إلى لحظة الخلاص وساعة التحرير. ولا يطول الإنتظار فبعد مالا يزيد عن المائة وثمانية من السنين وفى العالم الثالث (1567 ق.م) من حكم الملك القوى فى طيبة **"كاموزة"**، الذى عينه رع ملكا حقيقيا ومنحه القوة، نسمع كلمات الملك وهو يتسائل: "أود أن أعرف مدى سلطانى إذا كان هناك حاكم فى أواريس وآخر فى كوش وأجلس أنا شريكا بين أسيوى ونوبى ويحكم كل منا على جزء من مصر.. إن هذا الذى

يشاركنى فى الأرض ويجعلنى لا أستطيع الوصول إلى منف وهي تابعة لمصر لأنه يتحكم في مدينة الاشمونين والناس جميعا فى معاناة لأنهم فى خدمة الأسيويين... إنى سأحاربه وسأبقر بطنه لأن رغبتى هى أن أخلص مصر وأسحق الأسيويين". ويمضى فى حديثه إلى حاشيته وهو ممتلئ بالثقة فى النفس: "إن البلاد كلها ستهتف لهذا الحاكم فى طيبة وستقول عنه: كاموزة هو حامى مصر". وتأتينا نقوش جدران معبد الكرنك ببقية القصة على لسان الملك: "أبحرت شمالا فى عزم وقوة لأغلب الأسيويين بأمر الاله آمون، أعدل الناصحين، وكان جيشى القوى أمامى كلفحة اللهب وكان جند المدجا النوبيون يقفون عاليا فوق قمرتنا ليراقبوا السيتو ويدمروا مواقعهم".



الملك "عاحموزة" الأول

وهكذا كانت بداية عصر الإستقلال الثانى الذى دام أحد عشر قرنا (1570 – 525 ق.م) وتعاقب فيه على عرش مصر أكثر من سبعين ملكا من الأصلاب. عصر إستهله " الملك **"عاحموزة"** (طلعة القمر) الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (1570 – 1304 ق.م) بتطهير أرض مصر من بقايا الأسيويين مطاردا اياهم حتى مدينة زاهى بجنوب فلسطين ومتمما بذلك رسالة أخيه **"كاموزة"** وأبيه الشهيد الملك **"سقنن رع – تاعو"** الثانى (الشجاع).

ولا تكاد تمضى على حرب التحرير مائة سنة حتى نراها وقد خرجت من واديها لتبسط سلطانها وتؤسس أولى إمبراطوريات التاريخ. فها هو ذا **"تحوت موزة"** الأول (1525 – 1495 ق.م) يندفع شمالا حتى يصل إلى نهر الفرات وهناك يسجل دهشته لوجود أنهار فى الدنيا تجرى عكس نهر النيل. وها هي **"حتشبسوه"** (1490 – 1436 ق.م)، الملكة التى لم ترض بأقل من كبير الآلهة **"آمون رع"** ليكون أبا لها ولم ترض بغير عرش الفرعون بديلا، ها هي ذى تعتلى سدة الحكم وترسل سفنها إلى بلاد البونت فى بعثات سياسة وتجارة. ويشب إبن أخيها عن الطوق ليصبح فرعون مصر العظيم **"تحوت موزة"** الثالث (1468 – 1436 ق.م) ... بطل مجدو وقاهر الأسيويين من ميتانيين وحيثيين .... مؤسس الإمبراطورية المصرية أولى امبرطوريات التاريخ. وأصبحت

مصر على يد هذا الفاتح العظيم صاحبة السلطة والنفوذ واليد الطولى فى منطقة غرب آسيا ودخلت ثغور سوريا وفلسطين وجزر البحر الابيض المتوسط فى طاعة حاكم طيبة. وهكذا إمتد سلطان الفرعون نحو 3200 كم من الفرات في الشمال إلى نبتا فى أقصى الجنوب. وتتوالى الأسماء ... أسماء فراعين هذا العصر المديد . **"إخناتون"** (1370 – 1349 ق.م) الفرعون الصوفى والملك النبى المبشر بأحدية الإله .... **"حور محب"** (1334 – 1304 ق.م) المشرع العظيم، **"رعمسيس الثانى"** (1290– 1223 ق.م) أشهر الفراعين، الذى حكم مصر 67 عاما فجدد فتوحات سلفه العظيم **"تحوت موزة"** الثالث وهوى الحرب وعشق العمارة.

وكما بدأ عصر الإستقلال الثانى بـ **"عحموزة الأول"** (الأسرة الثامنة عشر 1570 – 1304 ق.م) فإنه إنتهى بسميه **"عحموزة الثانى"** (الاسرة السادسة والعشرون 663 – 525 ق.م). وكان عهده، الذى إستمر 44 سنة، هو آخر عهود هذا العصر الذى شهدت بداياته تأسيس الإمبراطورية المصرية وبسط النفوذ المصرى علي منطقة الشرق الأدنى القديم وشهدت نهاياته أطماع أمم اسيا الصاعدة الفتية من فرس وأشوريين ... أطماعها فى أمة بلغت من العمر عتيا وسادت المنطقة بالقوة والحكمة لقرون. وتطلعت تلك الأمم في شوق ولهفة لأبهة وهيلمان عرش الفرعون. وإنتقل عحموزة الثانى إلى الرفيق الأعلى وإتحدت روحه المقدسة مع رع فى السماء وإنقضي عهده المديد الذى كان صحوة النهاية وإرتعاشة الإحتضار لعصر الإستقلال الثانى. فما كاد إبنه **"بسماتيك الثالث"** يرتقى العرش حتى تسلم الرسالة ... وكانت الرسالة من قمبيز ملك القوة الأسيوية الصاعدة ... الفرس. ويخاطب قمبيز المصريين فى رسالته قائلا: "أنا قمبيز لم أكتب إليكم لإرغامكم فأنا لا أود إلا زيارتكم ... ! لا حرج عليكم إذا حضرتم لى ... بل تعالوا فلسوف أمنحكم مجدا أكثر مما تتمتعون به الآن... ! ولربما حدثتكم أنفسكم بعدم الخضوع إلي ... فإذا فعلتم فإنكم تكونون قد وضعتم ثقتكم فى أولئك الذين يسيرون بكم إلى الدمار. إن ملوك مصر وأمراء البلاد لن يستطيعوا تخليصكم من قواتى وآلاتى الحربية. أنظروا أنا قمبيز أكتب هذا إليكم وأذيعه عليكم فإذا إستمعتم له كان ذلك خيرا لكم، وإلا فكونوا مستعدين لملاقاة جام غضبى الذى سأصبه على رؤوسكم لأننى سيد الأرض كلها". وتستفز وقاحة الرسالة المصريين فيردون عليها قائلين: "يكتب هذه الرسالة جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم الغرب ويعيشون فى الهند. نكتب إليك أيها الجبان الرعديد قمبيز لقد تركنا رسولك يذهب بسلام، لا خوفا منك بل نزولا على إرادة فرعون الذى يحكمنا بمجد عظيم. لقد تركنا الرسول ولم نذبحه. ولكن إذا آثرتم سخطنا فأنت تعلم ما نحن فاعلون، فنحن قوة فرعون ومجد مصر ولسوف تعلم أيها العبد ما سيحل بك. سنوردك موارد التهلكة وسنلقى بأتباعك الظالمين وسنحرق آلهتك المرافقة لك. أما أنت فلن نضيع الوقت فى طهي لحمك بل سنمزقة بأسناننا كما تفعل الدببة والسباع

الضارية. والآن أيها التعس تدبر أمرك وفكر مليا فيما أنت مقدم عليها قبل أن ينصب عليك غضب مصر. فمن من الملوك، لابين الأشوريين فحسب بل من ملوك العالم كلهم قد إستكبر على مصر حتى بعد التغلب عليها..؟.. فهل تطمع أنت في التغلب عليها..؟.. هلا إتعظت بالملوك الحيثيين وأولئك الذين يقطنون الأقاليم الغريبة .. أليسوا جميعا علي جانب من القوة والجاه..؟.. فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضت مصر عندما تعاظموا..؟.. بل قبعوا فيها حتى لايصيرو عبيدا لنا ..يا للعجب..؟.. أن تهاجم أنت مصر .. سيحل بك العار على أيدى جنودنا".

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فتجتاح جحافل عسكر الفرس الديار المصرية، تؤازرهم خيانة أحد الأغارقة للجيش المصرى. وعلى عتبات منف، التى بناها الملك مينا لتكون أولى عواصم مصر الموحدة، تدور المعركة الفاصلة.

وينتهي عصر الإستقلال الثانى، الذى دام أحد عشر قرنا، لتصبح مصر ولاية فارسية يحكمها "ستراب".. يبعثه الإمبراطور الفارسى .. وتصبح مصر تابعة بعد أن كانت متبوعة .. ولا يصمد هذا الوضع المعكوس طويلا أمام حقيقة أمة تعى قدر ذاتها وتدرك تمييزها عن الآخرين. وتتوالى الانتفاضات إلى أن ينجح الأمير المصرى **"آمون-حر"** فى تخليص أمته من حكم الفرس مؤسسا بذلك الأسرة الثامنة والعشرين (404 – 398 ق.م)، وممهدا الطريق للأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين (398 – 341 ق.م). ومرة أخرى، وبعد العديد من المحاولات الفاشلة، يأتي ملك الفرس أرتاكسريس الثالث ، الملقب بـ " أخوس" على رأس جيش مكون من 300,000 جندى وأسطول مكون من 300 سفينة ليعيد مصر إلى حظيرة إمبراطورية الفرس. وتدور معارك ضارية فى بلوزيوم (تل الفرما) وبو باستيس ومنف لتسقط مصر بعدها فى يد الفرس للمرة الثانية. "وبعد أن إستولى أرتاكسريس على مصر ودمر أسوار معظم المدن الهامة، إستطاع أن ينهب المعابد وأن يجمع كمية كبيرة من الفضة والذهب وأن ينقل الوثائق المكتوبة من المعابد القديمة – وهي التى أعادها فيما بعد باجواس إلى الكهنة المصريين مقابل مبالغ ضخمة – ثم كافأ بسخاء اليونانيين الذين صحبوه فى حملتة كلا بما يستحق، ثم سرحهم إلى بلادهم وعاد بجيشه إلى بابل وهو يحمل معه مقتنيات وأسلاب بعد أن ذاعت شهرة إنتصاراته" بهذه الكلمات يصف المؤرخ الإغريقي ديودروس الصقلي اللحظات الأخيرة لحكم ملك مصر **"نبخو الثانى"** (نخت- نبف) الذى حكم مصر 18 سنة (359 – 341 ق.م) وكان آخر من جرت فى عروقه دماء مصرية من الفراعين. وتسقط مصر مرة أخرى فى يد الفرس ولا يخبو أوار حركات التحرير. ويأتينا التاريخ بأخبار الأمير **"خباشا"** الذي قاد حركة المقاومة المصرية ضد الفرس ويعلن نفسه ملكا على البلاد. وهناك فى مقدونيا .. فى بلاد

الإغريق .. يظهر الإسكندر .. نجما صاعدا، وفاتحا واعدا، وقائد لقوة فتية بلغت أخبار إنتصاراتها مسامع المصريين. وفى أكتوبر سنة 332 ق.ب، يزحف القائد الإغريقى تجاه مصر ليدخلها وسط ترحيب المصريين الذين رأو فيه قاهر لأعدائهم.

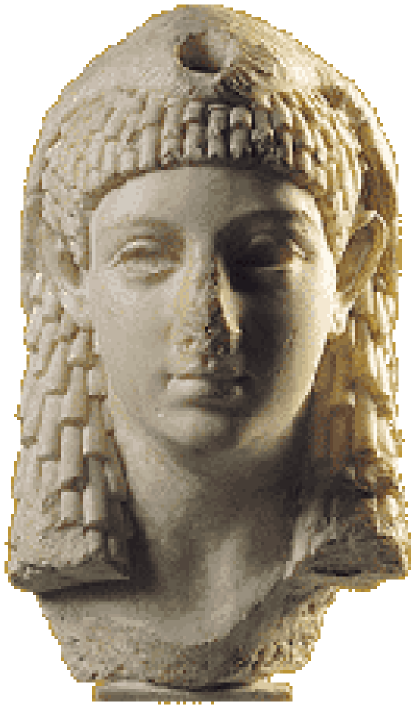
ويبدأ عصر الإستقلال الثالث الذى إستمر ثلاثة قرون (332 – 30 ق.م). وهناك فى منف .. عاصمة مصر التاريخية.. وفى معبدها الكبير تبدأ طقوس ولادة العصر الجديد ويقدم الإسكندر فروض الولاء لآلهة المصريين.. وهناك فى سيوة، حيث مهبط وحي الآلهة، يذهب الإسكندر لتتعمد روحه بالمصرية، كما رسم له الكاهن، ببنوته لسيد آلهة العالمين قاطبة.. الإله آمون.

وهناك في **"راقودة"**.. الميناء المصرى القديم.. تقام الاسكندرية عاصمة لمصر فى عصرها الجديد. ويتعاقب على عرش فرعون مصر خمسة عشر ملكا من الجريج الذين حلت بهم روح الأمة فصاروا متمصرين. وتأتينا المدونات بأخبار بطليموس الأول (323 – 284ق.م) أول ملوك البطالمة.. مؤسس جامعة الإسكندرية الـ **"موسيون"** ومكتباتها الشهيرة وبانى الفنار.. إحدى العجائب السبعة فى العالم القديم. وبطليموس الرابع (221 – 205 ق.م). باعث مجد مصر العسكرى، والذى أذهلت عساكره المصرية العالم القديم عندما إكتسحوا جنود الملك السورى أنتيوخوس من أغريق ومقدونيين.

وتمضى ثلاثة قرون كانت فيها الإسكندرية عقل العالم المفكر وكانت قلبه النابض الذى لا يكف عن الخفقان.. وكان العصر هو بحق "عصر الإسكندرية".. فهناك إمتزجت حكمة المصريين بثقافة الاغريق فأثمرت شخوصا ذهبت بشهرتهم الآفاق وبقيت أعمالهم منهلا للطالبين... يوكليدس (إقليدس) مؤسس علم الهندسة والوريث الشرعى لمعرفة المصريين ... أرخيميدس عالم الطبيعيات ... إراتوستينيس، مدير مكتبة الإسكندرية وأول من تمكن من قياس قطر الأرض ... يطليموس، الجغرافى العظيم وصاحب كتاب Meale Syntaxis الذى أسماه العرب بالمجسطى.. و.. و..

وكما بدأ عصر الإستقلال الثالث بدخول الإسكندر على رأس جيوشه من الشمال، عبر الشام وفلسطين، فاتحاً البلوزيوم متجها إلى منف وسط ترحيب المصريين كذلك كانت النهاية. فمن نفس الطريق تقدمت الفيالق الرومانية بقيادة القائد الرومانى أوكتافيوس فتستولى على الفرما (البلوزيوم) وتتجة إلى الإسكندرية لتأخذها عنوة بتواطؤ من سكانها اليهود.

وتنتهي عضة الكوبرا ... الصل المقدس.. حياة آخر فراعيين مصر... الملكة كيلوباترا السابعة (51 – 30 ق.م)، التى شغلت العالم بدهائها وجمالها وغرامياتها ومغامراتها، وحيرته فذهبت فى التاريخ أسطورة وينسدل الستار عن أولى فصول الحكاية الملحمة ... حكاية أم الدنيا.



كليوباترا السابعة .... آخر فراعين مصر

السلطنة المعنوية

وينسدل الستار عن حقبة مديدة ... حقبة إمتدت لأكثر من ثلاثين قرنا ... حقبة لم تفقد مصر فيها إستقلالها إلا لفترات لم يزد مجموعها على القرون الثلاثة. إنسدل الستار لينفرج عن حقبة جديدة إمتدت لتسعة قرون (30 ق.م – 868 م) فقدت مصر خلالها إستقلالها وإنتقلت من يد الرومان (30 ق.م – 640 م) إلى يد العرب (640 م – 868 م). تسعة قرون (30 ق.م – 868 م) غابت عن مصر فيها إستقلالية الجسد فلم تغب عنها إستقلالية الروح وبقيت لها خصوصيتها المميزة. "فما إختصت به مصر من بين المماليك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفئ وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى، فكأنما نورها شئ ما كان ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان. وأما مصر فأغرب شئ من بقاء سعدها وإرتقاء كوكب مجدها أنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا، لها اليد الطولى والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا" [2-8]. وتأتينا الأخبار بعبارة لكتاب الفرنجة **"أثناسيوس ضد العالم"** Contra Mundum Athanasius. عبارة وجيزة بليغة يصفون بها رجلا من الاسكندرية أختزلت فى نفسه روح الأمة. وكان الرجل هو أثناسيوس (296 – 373 م)، هذا الرجل قصير القامة ذو الأنف المقوس والفم الدقيق واللحية القصيرة والشعر الخفيف أحمر اللون... **أثناسيوس الرسولى** .. بابا الاسكندرية.. والبطرك العشرون الذى إعتلى كرسى مرقص الرسول سنة 326م (43 شهداء) وأمضى حياته في جهاد الخدمة وتعب الكرازة والمحاماة عن الإيمان. وكان رجلا أخذ العالم وشغله بصراعه وجدله مع فكر آريوس الأسقف المصرى المارق من شركة كنيسة الاسكندرية وكرازة مرقص الرسول. ولم يكن الصراع، وإن غلفته أمور البحث فى الأسرار المقدسة وفى دقائق اللاهوت، إلا تجسيدا لروح مصر التواقة أبدا إلى الإستقلال بنفسها ... إستقلالا فى عالم المادة وإستقلالا في عالم الروح، وكانت المجابهة بين الجانبين آريوس وفكره، ومن ورائهما سطوة وسلطان قيصر الروم الإمبراطور قسطنطين، وأثناسيوس ومعه شعبه من كهنة ورعية ورهبان. ويطول الصراع إلى أكثر من أربعين سنة، فلا تلين قناة الرجل ولا يهتز إيمانه بما آمن به ويمضى الرجل شريدا مطاردا فى منافيه .. فى إيطاليا .. فى فرنسا .. يعلم شعوبها ما يعتقد أنه هو الإيمان الصحيح.

واليوم، وبعد مرور أكثر من خمسة عشر قرنا، قد تختلف مع الرجل فى آرائه .. قد تتعاطف مع معتقدات خصومه .. ولكنه يظل، أيا كان موقفك تجاهه، رمزا لخصوصية الأمة التى أنجبته .. ولإحساسها بذاتها وذاتيتها فكانت حياته تجسيدا لتلك الحقيقة الدامغة التى ظلت دوما تتجلى فى شخوص أبنائها منذ أن وجدت وحق عليها البقاء.



أيقونة قبطية تصور القديس أثناسيوس الرسولى

ولم يكن أثناسيوس إلا إحدى ثمار غرس الآباء .. أولئك الآباء الاول الذين أسسوا فى مدينة الإسكندرية أولى مدارس اللاهوت المسيحى .. المدرسة الكاتشيسية (أى مدرسة تعليم قواعد الايمان بالسؤال والجواب) .. والتى كان لأساتذتها وطلابها فضل الذود عن المسيحية فى طورها الجنينى وكانت أفكارهم منهجا للعقيدة وقوانينا لإيمان. فكان **"بنتيوس السكندرى"** (أوائل القرن الثانى الميلادى) مؤسس اللغة القبطية ورسول المسيحية إلى بلاد الهند. وكان **"كليمنت السكندرى"** تلميذ بنتيوس المتضلع فى الفلسفات اليونانية وأول علماء المسيحيين. وكان **"أوريجون"** (185 - 254 م) عملاق الفكر اللاهوتى المسيحى على مدى الأجيال والذى كتب إلى احد تلاميذه قائلا: "كذلك يجب علينا المسيحيين أن نصفع بفلسفة اليونان، فلننقل إلى هيكل الحكمة الإلهيه هذه الزينات التى يسىء أربابها إستعمالها. فلنأخذ عن اللغة اليونانية التى طالما استعملت لمدح الضلال والرذيلة، عذوبتها وطلاوتها لتزيين حقيقتنا الناصعة بالزينة التى طالما ألبسوها باطلهم بهتانهم ... فلنجعل إله الشر قوة للخير" [2-9].

ولم يكن أثناسيوس، رجلا وموقفا، إلا تعبيرا حيا واستمرارية متجددة لتلك الروح التى انجبت **"القديس بولا"** (228 -343 م) .. إبن مدينة طيبة وأول الرهبان المتوحدين والقديس **"أنطونى"**

(251- 365م) إبن بنى سويف وواضع أسس حياة الزهد للرهبان المتوحدين والقديس **"باخوم"** (275- 349م) .. إبن مدينة طيبة، الذى بدأ حياته جنديا وثنيا فى الجيش الروماني فأنهاها وهو أب للشركة ومؤسس لقوانين الرهبنة الديرانية. تلك الثلة من الرجال التى إمتدت اعمالهم إلى شتى أرجاء العالم المسيحي .. إلى المانيا وفرنسا وأيرلندا وإسكوتلاندا شمالا .. إلى الحبشة جنوبا .. ليبيا غربا .. الشام وآسيا الصغرى شرقا. وكانت سيرهم مثلا تحتذى ويسير على هداها المؤمنون.

ويأتينا التاريخ بأخبار أحفادهم .. فها هو ذا بابا الإسكندرية الثالث والثلاثون الأنبا ثيودوسيوس الأول (536 م) يقف أمام والى الإمبراطوراليونانى يوستنيانوس قيصر الأول وهو وسط جيشه ويخاطبه قائلا: "ليس لمولاكم سلطان إلا علي جسدى الفانى. ولكن نفسى في يد مخلصى". فتمضى عبارته خالدة في نفوس قومه وتأتينا كلمات أحد أحفاده، الشيخ رفاعة الطهطاوى، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا وهي تؤكد أن "سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم". لقد كانت مصر مستعمرة .. ولكن لها كنيسة مستقلة .. وفى أعماق كل مصرى كان ثمة أمنية .. أن تكون بلاده ككنيسته [2-10].

وهكذا شكلت مصر فكر المسيحية وقدمت للعالم رهبنة كان "أهلها هم القائمين بسياسة نفوسهم وتعديل قواهم وضبط جوارحهم وإنخراطهم فى سلك العدول" [2-11].

وتنتقل مصر من أيدى الروم إلى أيدى العرب ويدخل الإسلام فتمضى مصرفى ممارسة سلطنتها المعنوية على الوافد´الجديد. ونسمع عن يزيد إبن أبى حبيب (673- 745 م /57-128هـ) .. إبن أبى حبيب .. المصرى النوبى .. إبن دنقلة .. الذى عاش فى الإسكندرية وكان من أئمة التابعين فاسس نهجا ومدرسة لتدقيق رواية الحديث والتحقق من السند والإسناد، وكان أول من أرخ لمصر بعد دخول العرب إليها، وبه بدأ فن الكتابه عن الخطط (أى الأنحاء والنواحى) والآثار. وهناك فى مدينة الاسكندرية .. مدينة الميوسون والمدرسة الكاتشيسية .. ظهر أولى صوفية الإسلام. فها هو ذا أحدهم يرد على سائله حوالى (777 م / 160 هـ) قائلا: "لا تطمع فى حب الله مع محبة المال والشرف ومع حب المدحة" ويستطرد قائلا: "البخل عند أهل الدنيا أن يكون الرجل بخيلا بماله، وأما الذى هو عند الآخرة فهو الذى يبخل بنفسه عن الله تعالى". وهكذا "ظهوت فى الاسكندرية طائفة يسمون الصوفية يامرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أمره" [2-12].

وجنوبا .. فى أخميم .. البلدة التى وصفها ياقوت الحموى فى كتابه الشهير معجم إلبلدان بأنها "بلد قديم على شاطيء النيل بالصعيد، وفي غربيه جبل صغير من أصغى إليه سمع خرير الماء، ولغطا شبيها بكلام الآدميين لا يدرى ما هو ... وبأخميم عجائب كثيرة قديمة منها البرابى وغيرها ... والبرابى بنية عجيبة فيها تماثيل وصور .. وهو بناء بسقف واحد وهو عظيم السعة مفرطها، وفيه طاقات ومداخل، وفي جدرانه صور كثيرة، منها صور لآدميين ولحيوان مختلف، منه ما يعرف ومنه مالا يعرف. وفى تلك الصور صور رجل لم ير أعظم منه ولا أبهي ولا أنبل. وفيها كتابات كثيرة لا يعلم أحد المراد بها ولا يدرى ما هى والله أعلم بها" [2-13]. فى أخميم هذه نشأ أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم النوبى المصرى المعروف بذو النون المصرى (791 – 859 م /175 – 245 هـ) ، أول من تكلم عن المقامات التى يتدرج فيها الصوفى حتى يتصل بالذات الإلهية، وعن الأحوال التى تعرض للصوفى وهو يترقى من خلالها إلى الشهود أو الفناء وعن وسائل المعرفة وغايتها [2-14].

وهكذا كانت السلطة المعنوية قدرا للأمة منذ أن كانت فـ "المصريون كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذا المقياس ظهر قبل ان تكتب تلك الوصايا بألف سنة .. وإن علينا أن ندرك الأهمية العظمى للحقيقة التاريخية الثابته وهى أن الإنسان قد سما إلى تصور خلقى عال قبل أن تظهرالأمة العبرانية إلى عالم الوجود، بألفى عام .. فالمدنية فى أعلى معانيها قد ولدت فى هذا الركن الجنوبي الشرقى من البحر المتوسط .. هناك "حيث أشرقت شمس العدالة قبل تشرق على فلسطين بأكثر من ألفى عام" [2-15].

الحنة الحنة يا قطر الندى

وتمضي تسعة قرون من عمر الأمة تمضى وأمرها بيد وال يبعثه من روما أو من القسطنطينية قيصر الروم، أو يرسله من عاصمة الخلافة خليفة المسلمين. وتمضي السنون فى إيقاع بطئ شديد الوطاة على نفوس الابناء ... تمضى لتبقى فى الأعماق كامنة روح الأمة جذوة، متقدة تتوهج دوما فلا يخمد إحساسها بالتفرد والتمايز وشوقها لتجسيد الهوية قمع دموى النزعة او إضطهاد محموم. ولا ينسيها ما هو كائن ما قد كان فتأبى إلا التجلى وترفض إلا ان تكون. وتتعدد الصور وتتباين الأشكال .. فهاهم المصريون يتلقون بشارة مرقص الرسول ليؤسسو كنيسة قومية تمثلت فيها روح الوطن فكان لاهوتها لاهوت قومية وتعبيرا دينيا عن حقيقة الهوية التى ما غابت يوما عن الضمير.

وتمضى السنون ولايكف المصريون عن التململ والغضب والإنفجار .. فنسمع عن تمرد أرستمارخوس ضد إمبراطور الروم موريس (600 م) وعن إنتفاضة المصريين فى الدلتا سنة 725م (106 هـ) وعن ثورتهم ضد العرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك سنة (117 هـ). وتتوالى الإنتفاضات ويتسع نطاقها وتتصاعد حدتها. وما أن تهل سنة 831 م (216 هـ) حتى تأتينا الأخبار بثورة البشموريين (سكان المنطقة الرملية فى ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد) الكبرى والتى يخمدها الخليفة العباسى المأمون ببطش ودموية لم يسبق لها مثيل.

وتمضى السنون ويتولى على مصر ولاة كانت سننهم فيها الظلم والجور. فلما تولى الأمير أحمد بن محمد المدبر و"كان من شياطين العمال، أحدث فى أيامه انواعا من وجوه الظلم لم تكن بمصر، منها: انه حجر على الأطرون والملح وكانا مباحين للناس ومنها "انه قرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم، وسماه المراعى، وقرر على مصايد الاسماك مالا وسماه المصايد، وأحدث من هذه المظالم أشياء كثيرة .. وهذه أول تلاشى أحوالى الديار المصرية ، فلما جرى ذلك رحل غالب أهلها من الظلم .." [16-2].

وتمضى القرون التسعة بخطاها المتثاقلة لتمهد لولادة العصر الجديد ... عصر الإستقلال الرابع الذى يمتد لستة قرون (868 – 1517م / 254 – 923هـ) وتكون بدايته لما "ولي الأمير أحمد على مصر، تسلمها من أحمد بن المدبر، وقد تلاشى أمرها وإنحط خراجها، فإهتم الأمير أحمد بعمارة جسورها وبناء قناطرها، وحفر خلجانها وسد ترعها. فإستقامت أحوال الديار المصرية، ووقع العدل والرخاء فى أيامه ، حتى قيل يبع كل عشرة أرادب بدينار، وعلى هذا فقس فى جميع الغلال والبضائع" [2-17].

وكان الأمير أحمد بن طولون، أول حكام مصر في عصرها الجديد "كريم اليد، سخي النفس، منقادا إلى الشريعة يحب العلماء والصلحاء، وكان عنده التواضع، يصلى على من يموت من أهل مصر، من فقير أو غنى، وكان عنده إشتغال بالعلم وطلب للحديث، وكان يتصدق فى كل أسبوع على فقراء البلد بثلاثة ألف دينار غير الرواتب الجارية على أهل المساجد والزوايا فى كل شهر ألف دينار .. وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة، إستقل فى أيامه بملك مصر ولم يدخل فى طاعة خلفاء بغداد وكان حكمه من الغرب حتى الفرات .. وكان الناس يخيرونه على خلفاء بغداد فى عدله بين الرعية" [2-18].

وتأتينا كلمات الشيوخ الرواة لتصور لنا حزن الأمة على أميرها الذى منحها إستقلالها الضائع منذ تسعة قرون. "فلما رجع حم من يومه ولزم الفراش، فسلسل فى المرض نحو عشرة أشهر، فخرج الناس قاطبة فى الصحارى، وفعلوا كما يفعلون فى الإستسقاء، فخرجوا حفاة وعلى رؤوسهم المصاحف، وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة وخرج النصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح، وخرج العلماء والزهاد، ودعوا إلى الله تعالى له بالعافية والشفاء" [2-19].

ويقضى الأمير نحبه لتمضى الأمة، من بعده، تحيا عصر إستقلالها الرابع فيتولى أمرها 84 أميرا وخليفة وسلطانا ..حفظ لنا التاريخ آثارهم .. وحدثنا عن أعمالهم .. وحكى لنا الشيوخ الرواة عن أخبار دولهم.

وتنقضي أيام دولة ابن طولون بعد أن إستمرت 38 سنة (868 – 904 م/ 254 – 292 هـ) وبعد ان مهدت الطريق لمصر المستقلة.

وتعود مصر مرة اخرى دار ولاية تتبع خليفة بغداد، المكتفى بالله، و ينتقم قائده محمد بن سليمان الكاتب من المصريين شر إنتقام "وكان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جورا، وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال" [2-20].

ولكن ما كان لروح الإستقلال، التى أحياها فى نفوس المصريين أحمد ابن طولون، أن تخمد أو أن تموت .. وما كان لها إلا أن تبحث عمن يجسدها حتى ولو كان من الغرباء. فنراهم وقد وقفوا

مساندين ضباط الجيش الطولونى إبن الخليج فى ثورته على الخلافة العباسية وإستقلاله بمصر لمدة سبعة شهور قبل أن ينجح خليفة بغداد فى إستردادها. ولا يمكننا أن نفسر نجاح ابن الخليج وتحديه للحكومة المركزية فى بغداد دون أن نأخذ بعين الإعتبار تحمس الشعب المصرى ضد تلك الحكومة التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى، وكانت الأموال المصرية تنفق على يدها فى مصر ولا تتسرب إلى بيت مال الخليفة وجيوب كبار الموظفين فى بغداد، فضلا عن أن تخريب القطائع ترك ألما وحسرة فى نفوس المصريين [2-21].

ولا تكاد تمضى 92 سنة على عودة مصر لتبعية بغداد حتى ينجح محمد بن طغج، الملقب بالاخشيد، فى تأسيس دولة مستقلة عن الخلافة تستمر نحو 36 سنة (933 – 969م /321 – 358 هـ). وهكذا كانت الدولة الطولونية، بأمرائها الخمسة فاتحة لعصر الإستقلال الرابع، كما كانت الدولة الإخشيدية، بحكامها الأربعة، تمهيدا لطور جديد من أطوار مصر المستقلة تصبح فيه دار خلافة لا دار ولاية. طور "طاول فيه خليفة مصر خليفة بغداد فكانت الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر إلى الفرات، إلى مكة والمدينة، وكانت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة" [2-22]. وولدت دولة الإستقلال الثالثة، الدولة الفاطمية، فى يوليو 969 م (شعبان 358هـ)، عندما دخل جوهر الصقلى، قائد جيش المعز لدين أول خلفاء الدولة الجديدة مدينة الفسطاط.

وتبنى القاهرة المعزية لتكون مدينة ملوكية و "دار خلافة ملك ومعقل قتال، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقربه فقط" [2-23]. تبنى لتكون مقرا للخلفاء الفاطميين الذى "غلب عليهم تسميتهم بالمصريين كما أطلق بعض المؤرخين على دولتهم: دولة المصريين، والدولة المصرية، وكان يطلق على الجيش الفاطمى بكل طوائفه واجناسه العساكر المصرية وجند المصريين" [2-24].

ولم يكن إنتساب الفاطميين لمصر مجازا بل كان واقعا معاشا فـ "فى واقع الأمر فإن المصريين هم الذين كانوا يحكمون دولة الفاطميين لوجودهم فى الإدارة وفى مناصب الوزارة" [2-25]. وقد كون الفاطميون أيضا فرقا مصرية كانت تعرف بالحجرية ضموها إلى جيشهم. كما إشترك المصريون فى الدفاع عن الدولة الفاطمية فى العديد من المناسبات. فعندها طرد الفاطميون من الشام عام 971م وتقدم القائد المشرقى الأعصم إلى مصر وإحتل الفرما ووصل إلى مشارف القاهرة فى أوائل عام 172م ، وزع جوهر الصقلى السلاح على المصريين وإستطاع بمعاونتهم رد الغزاة. وعندما إستولى الروم على حلب وحمص عام 996 م وبدأوا فى النزول إلى طرابلس، أعلن العزيز، ثانى الخلفاء

الفاطميين (975 – 427/1094 – 687 هـ)، التعبئة العامة بين المصريين وجند منهم عددا كبيرا وإستطاع بهم هزيمة الروم فى صور عام 1060 م. كما إستعان المستنصر خامس الخلفاء الفاطميين (1035-1094 م/427-687 هـ) بالمصريين فى قتاله مع الحمد ناصر الدولة عام 1010 م وتمكن من إلحاق الهزيمة به [2-27].

ويتعاقب على كرسى الخلافة الفاطمية أحد عشر خليفة ينظرون إلى أنفسهم كرعاة وحماة لرعيتهم من المصريين. فيقول العزيز: "أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى" [2-28]. وعندما تعرض عليه بعض وجوه الإنفاق على الدولة لإعتمادها، وكانت تحتوى على النفقات الخاصة بمطابخه وموائده. فحذف ذلك كله ولعن من أعدها وقال: "أشبع أنا ويجوع الناس، أطلقوا أرزاق الناس" [2-29]. ويصف أحد الرحالة ممن زاروا مصر فى عصر الدولة الفاطمية أحوال المصريين فيقول: "بلغ أمن المصريين وإطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم، بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيئ منها" [2-30].

واليوم، وبعد مرور أكثر من إحدى عشر قرنا على بداية عصر الإستقلال الرابع، مازالت تتردد أغنية تزف البنات بها العروس إلى عريسها.

الحنة ... الحنة ... ياقطر الندا

ياشباك حبيبى ياعينى جلاب الهوى

ياخوفى من أمك تسالني عليك

لأحطك فى عينى وأكحل عليك

ياخوفى من أختك تسألنى عليك

لأحطك في شعرى ياعينى وأضفر عليك

وإن جاتنى العوازل تسألنى عليك

لأحطك فى صدرى ياروحى واللولى عليك

وتأتى الكلمات تذكرنا بعرس أميرة مصرية، الأميرة قطر الندى بنت الأمير خماروية إبن أحمد بن طولون، وبيوم أن زفت إلى المعتضد خليفة بغداد. وتبقى فينا حية أصداء ماض بعيد ... عروسة مولد... فانوس رمضان ... وطبق عاشوراء.



موكب عرس مصرى



هودج العروس

قرية فى حكم نايب

"ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر بلاد الأرض قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين، وحاوى ملك مصرالذى إفتخر به فرعون اللعين، حيث قال: أليس لى ملك مصر، وقد تباهى بملك مصرعلى سائرممالك الدنيا. ولكن إبن عثمان إنتهك حرمة مصر، وما خرج منها حتى غنم أموالها .. وقتل أبطالها .. ويتم أطفالها .. وبدد أحوالها .. وأظهر أهوالها .. فلم يدخل إليها أحد من الخوارج ولاقط ملكها ولا جرى عليها ما جرى إلا أن كان فى زمن البختنصر المايلى .. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" [2-31].

وتأتينا اليوم كلمات الشيخ فتأخذنا وتعود بنا خمسة قرون لنشاركه لحظات حزنه وأساه. تأتى لتأخذنا فنكون مع الشيخ شهودا لنهاية عصر الإستقلال الرابع الذى إمتد لسته قرون عصر بدا بموكب عرس، زفت فيه عروس مصرية لخليفة بغداد، وإنتهى بموكب، زفت فيه لمشنقة الجلاد رقبة سلطان. عصر كانت بدايته أغنية للحنة وقطر الندى، وكانت نهايته حوقلة وفاتحة تنعى سلطانا شابا.

ومضت ستة قرون كانت فيها "مدينة تانيس، أول ثغر يعترض المقبل على مصر من الشرق، كانت مدينة صناعية هامة، بها 150 الف ساكن ومالا يقل عن خمسة ألف نول للغزل وصناعة معدنية مزدهرة و 36 معصرة سكر و 36 حمام و 100 دكان لبيع الروائح وميناء لا يقل عدد المراكب الراسية به عن مائة مركب" [2-32]. أما قوص فكانت "حافلة بالأسواق .. متسعة المرافق .. كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنود وتجار الحبشة" [2-33]. ويزور إبن بطوطة، الرحالة الشهير، مصر سنة 1314 م، ليجد "الاسكندرية تتجر إتجارا واسعا خصوصا فى العطور والسكر والحرير ووجد دسوق مدينة ضخمة تبلغ ضعف الإسكندرية وتملك تجارة واسعة. وشهد بأسواق القاهرة والمواد الغذائية والعطارة مالم يره فى عاصمة أخرى. وكانت المدينة تزخر أيام زيارته لها بالسكان فلا يكادون يجدون ما يكفيهم للبيات فيها ويبيت بخارجها كل يوم مالا يقل عن مائة ألف ساكن.بوكان بمصر وحدها (القاهرة) 120 ألف سقاء و 30 الف مكارى و 31 الف مركب نيلية. وكذلك كانت أبيار مدينة كبيرة تصنع الثياب القيمة وتصدرها إلى الشام والعراق" [2-34] . ويصف لنا المقريزى أحوال القاهرة في عصر المماليك فيقول: "وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلدان ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الاحمر التى يوضع فيها اللبن والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من

القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها، فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل" [2-35].

ومضت ست قرون كان فيها الجالس على عرش مصر هو "سلطان الإسلام والمسلمين .. وارث الملك وسلطان العجم والترك .. إسكندر الزمن .. صاحب القبلتين .. خدام الحرمين .. سيد الملوك والسلاطين". وإنقضت السنوات التى كان يدعى فيها لسلطان مصر من فوق منابر كل جامع ومصلى .. مسجد وزاوية على امتداد "الديار المصرية .. والبلاد الشامية .. والديار البكرية .. والحجازية .. واليمنية .. والفراتية .. وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا". وتوقفت المواكب السلطانية وما عادت الناس تشاهد سلطانها نازلا من قلعة الجبل فى أبهة الملك وقد "حملت على رأسه القبة والطير. وفرشت تحت حوافر فرسه الشقاق الحريرية، من باب النصر إلى القلعة، ونثرت عليه خفائف الذهب والفضة .. ومشت قدمه الرؤوس النوب بالشاش والقماش، ولاقاه الأوزان والشبابة السلطانية والشاوشية .. وإصطفت له المغانى من الرجال والنساء على الدكاكين وكذلك الطبل والزمور" [2-36].

وكانت بداية النهاية على أرض مرج دابق، بديار السلطان الشامية. فمع طلعة شمس يوم الأحد الرابع من أغسطس سنة 1515م (32رجب 921 هـ)، إلتقى الجمعان عسكر السلطان العثمانى سليم الأول مع عسكر السلطان المصرى الأشرف أبو النصر قنصواه الغورى .. "فلما إتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر، فإذا صفوف العثمانية قد بانت صف بعد صف خرجا عن الوصف، والأعلام الملونة من اليسار والميمنة وهم سائرون كالبحر السايل والمحيط المايل، وقد رتبوا الصف من كل طرف، فإذا طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم مدفع كبير كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه الصحراء، وطلع منه دخان كالجبال الزرقاء. فما كان من الأمراء إلا أن إعتمدو على الله فى حملتهم إصفو نياتهم وصدموا الروم .. وقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر إبن عثمان وكسروهم كسرة مهولة .. فهم إبن عثمان بالهروب أو طلب الأمان". ويلعب الولس دوره المعتاد فينسحب خاير بك (خاين بك كما لقبه بعد ذلك الشعب المصرى) نائب حلب من المسيرة فتدور الدائرة على العساكر المصرية وتشتد الجند وتتخذل الأمراء وتضيع صرخة السلطان "يا أغوات ... هذا وقت المروة ... قاتلوا وعلى رضاكم" سدا فى سماء مرج دابق "فلما تحقق السلطان من ذلك نزل عليه خلط فلج أبطل شفته وأرخى حنكه ... وإنقلب على الأرض فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره". وزحف إبن عثمان بعسكره حتى أتى "إلى وطاق السلطان ونزل فى خيامه، وجلس فى المداورة، وإحتوى على الطشتخانة وما فيها من قماش وعلى

الشراب خانة وما فيها من الأوانى الفاخرة، وعلى الزردخانة وما فيها من السلاح، وعلي خزائن المال والتحف" [2-37].

وتغرب شمس نهارهذا اليوم الحزين وتنتهى أولى وقائع الكاينة الأليمة ولا يبقى على أرض مرج دابق إلا "جثث مرمية .. ووأبدان بلا رؤوس .. ووجوه معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها .. وصار فى ذلك المكان خيول مرمية بسروج مغرق .. وسيوف مسقطة بذهب .. وبركستونات فولاذ وخوذ و زرديت وبقج قماش".

ويخلف الأمير الشاب الدوادار طومان باي السلطان المغدور على دست السلطنة، وتتلاحق الأحداث، فما أن "نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا فى الريدانية وهم بلباس من آلة السلاح. حتى صارت الأمراء المقدمون يخرجون إلى الريدانية وهم على جرايد الخيل... وعرض السلطان الزعر بالوطاق، فإجتمع منهم الجمع الغفير... وإهتم السلطان بعمل حائط يستر بها على المكاحل التى نصبها فى الريدانية وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنايين فلما رأوا العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه، فصارت المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعالة فى فحر الخندق وعمل الحائط الذى تستر على المكاحل".

فلما كان الخميس 29 ذى القعدة سنة 922 هـ (1516 م) وقعت الواقعة التى "تذهل عند سماعها أولى الألباب، وتضل لهولها الأراء من الصواب" وتهاجم عساكر إبن عثمان الخطوط الدفاعية المصرية وهى عاملة بكافة أسرارها وتفصيلاتها ودقائقها .. فلقد سلمها لهم ثانى أمراء الخيانة.. الأمير قنبردى الغزالى. وتقع الكسرة الثانية للعساكر المصرية ولكن نفس السلطان لا تنكسر وإراداته لا تلين.

ففى ليلة الأربعاء الخامس من محرم بعد صلاة العشاء "لم يشعر إبن عثمان إلا وقد هاجم عليه الأشرف طومان باي بالوطاق وإحتاط به، فإضطربت أحوال إبن عثمان إلى الغاية، وظن انه مأخوذ لا محالة، وأشيع أنه هاجم عليه بجمال وهي محملة ساسا وأطلق فيها النار، فإحترق بعض خيام إبن عثمان، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر إبن عثمان مالا يحصى عددهم، وإجتمع هناك الجم الغفير من الذعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالماقليق وفيها الحجارة، وإستمروا على ذلك إلى ان طلع النهار".

ويمضى السلطان، كأبطال الملاحم، فى نضاله الياس حتى تسلمه خيانة شيخ عرب البحيرة حسن بن مرعى إلى إبن عثمان. وتأتى النهاية كالبداية .. حزينة .. دامية .. ففى الخامس عشر من ربيع أول سنة 923 هـ (1517 م) ، يساق آخر سلاطين مصر إلى حتفه فى موكب أليم "فلما طلع من بولاق شق من قنطره المقس وقدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ... فطلع من سوق مرجوش وشق من القاهرة، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق .. فلما أتى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبل ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، فلما تحقق انه يشنق وقف على اقدامه وقال للناس الذين حوله: "إقرؤا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات" فبسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى: "أعمل شغلك" .. وينقطع الحبل ثلاث مرات قبل أن يتأرجح بجثمان آخرسلاطين مصرمعلنا النهاية الحزينة لعصر الإستقلال الرابع. "فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شاب حسن الشكل نحو أربعة وأربعين سنة وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال إبن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ووقع منه في الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال .. وكان محببا من الرعية قليل الأذى فى حق الناس".

وصارت مصر "قرية فى حكم نايب" .. وتصف كلمات شيخنا الحدث بأنه "من العجائب" وتأتينا معلنة احتجاجها على المنطق المعكوس .. مستنكرة أمرا ضد طبائع الأمور. وننظر إلى عصر الشيخ فلا نجد لكلمة القومية مكانا فى معاجم الالفاظ ....!

آلام المخاض

ما دامت مصر ولادة وفيها الطلق والعادة

هتفضل شمسها طالعة برغم القلعة والزنازين

أحمد فؤاد نجم

جن على

وتمضى على كاينة العثمانلى ثلاثة قرون إلا قليلا. تمضى وهم ينهبون من مصرنا ما يقدرون.

فمنها سرقوا الخلافة، ففى "... يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى سنة 923 هـ (1517 م)، خرج أمير المؤمنين المتوكل علي الله قاصدا السفر على اسطمبول".

ومنها سرقوا الدور .. فإذا بإبن عثمان يصبح بقدرة قادر "مالك البرين والبحرين .. وكاسر الجيشين .. وسلطان العراقين .. وخادم الحرمين الشريفين".

ومنها سرقوا المهارة ... فـ "خرجت طائفة من البنائين .. والمهندسين والنجارين .. والحجارين .. والحدادين .. والمرخمين .. والمبلطين... وفيهم من مسلمين ونصارى .. حتى من طائفة الفعلة .. وبطل منها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها".

ولم يبق شيئ يمكن نهبه إلا وقد نهبوه .. فها هو ذا شيخ مناسر العثمانلى السلطان سليم الأول، وقد "خرج من مصر وصحبته ألف جمل ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف .. والسلاح والصينى والنحاس المكفت .. والخيول .. والبغال .. والجمال .. وغيرذلك، حتى نقل منها الرخام الفاخر وأخذ منها من كل شئ أحسنه، مالا فرح به أباؤه وأجداده من قبله أبدا".

وتمر ثلاثة قرون إلا قليلا، يتعاقب فيها على نيابة الديار المصرية ما يزيد على المائة والعشرين واليا من النهابين العظام .. يقضون أيام نيابتهم المعدودة فى قلعة الجبل، يقضونها فى انتظار قدوم "أبو طبق" ليطوى من تحتهم سجادة الولاية وهو يقول للجالس فى عليائها "إنزل ياباشا".. يقضونها فى نهش لحم الأمة بشراهة المفجوع.

تنقضي قرون ثلاثة يتباطأ إيقاع الزمن فيها وتنزوى مصر فيها عن مسرح الأحداث .. يخفت الصوت .. تبهت الصورة .. ولكن تبقى تحت السطح كامنة فورة الحياة .. وتظل الأيام حبلى فى

إنتظار لحظة ميلاد جديد. وتأتى سنة 1760 م بأولى آلام المخاض ويظهر على مسرح الأحداث **"جن على"** ... **"بلوط قبن"** وكانت كلها ألقاب للملوك المصرلى على بيك الكبير الذى "لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى بديلا" والذى قال: "أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفى". وقد كان فـ "خلص الأقاليم المصرى من الإسكندرية إلى أسوان ونفذ إلى أغراضه بالبلاد الحجازية والشامية، ومنع ورود الولاة العثمانيين".

جن على، الذى كان .. "يطالع كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية .. " فحلت فيه روح الأمة النازعة دوما إلى الإستقلال، فسير جيوشه ليجسد حلمها الجنين بقوة السلاح. وإنصرف ليؤكد لها شرعيته فى "تتبع المفسدين الذين يتداخلون فى القضايا والدعاوى- بأخذ الرشا والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد، حتى أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلا، راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير ويبيت فى الغيط أو البرية آمنا مطمئنا، لا يرى مكروها أبدا". ومضى يحيى سنة السلف وحرفة الأجداد في عمارة البلدان فـ "أقام المسجد الجامع والقبة على مقام سيدى أحمد البدوى ، وما يجاورها من الحوانيت للتجار... وهو الذى جدد أيضا قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه، وكشف عنها ما عليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل الأيوبى فى القرن الخامس .. فجدد ما تحته من خشب القبة النقى الحديث، ثم جعلوا عليه صفائح الرصاص المسبوك الجديد المثبت بالمسامير العظيمة .. وهو عمل كثير .. ومن إنشائه بشاطئ النيل ببولاق .. وهى عبارة عن قيسارية عظيمة ببابين يسلك منها من يجرى إلى قبلى وبالعكس. وخانا عظيما يعلوه مساكن من الجهتين وبخارجه حوانيت وشونة غلال .. وكانت عمارة الدنيا وعمارة الدين" [2-38].

وتجهض الحلم الخيانة .. خيانة مملوكه محمد بك أبو الدهب .. ويقضى جن على نحبه مقهورا من خيانة الأقربين . وينهار الحلم الجنين .. ويبقى الأمل حيا فى القلوب .. حلما تجسده كلمات الجبرتى "... ولعل العود يخضر، ويطلع النجم بعد الأفول، أو يبسم الدهر بعد كشارة أنيابه".

همام شيخ الصعيد

"ومات الجناب الأجل والكهف الأظل، الجليل المعظم والملاذ المفخم الأصيل الملكى ملجأ الفقراء ومحط الرجال الفضلاء والكبراء شيخ العرب الأمير شرف الدولة همام بن يوسف بن احمد بن محمد بن همام إبن أبو صبيح سيبة ... عظيم بلاد الصعيد ومن كل خيره يعم القريب والبعيد" [2-39].

بهذه الكلمات رثى الجبرتى واحدة من تلك الشخصيات الفذة التى تتابع ظهورها فى فترة آلام المخاض التى سبقت ولادة عصر الإستقلال الجديد لأمة بلغت من العمر عتيا وبدأت فى التململ من حكم العثمانيين.

وكان الرجل هو همام .. بكر الابناء الذكور للشيخ يوسف زعيم قبائل الهوارة ... تلك القبائل التى هاجرت إلى مصر من المغرب فى عهد الدولة .. الفاطمية وإستقرت فى صعيد مصر وتمتعت بقدر هائل من الثروة والنفوذ وسيطر شيوخها على مقاليد الأمور فى الصعيد حتى عام 1575 م (893 هـ). وكان مولد رجلنا، الذى آلت إليه زعامة قبائل الهوارة، فى فرشوط محافظة قنا سنة 1709 م (1121 هـ).

وفى الشمال .. فى القاهرة .. وبينما كان على بيك الكبير يسعى إلى مشيخة البلاد ويتطلع إلى الإستقلال بها، كان الشيخ همام يعمل على مد سلطانه على ولاية جرجا التى كانت تضم كافة أقاليم الصعيد من المنيا إلى الشلال. ولم تبارح مخيلة على بيك، فى سعيه للخلوص بمصر من امبراطورية بنى عثمان أطياف اسلافه العظام من سلاطين المماليك والتى مازالت أعمالهم تنتصب شامخة فى قلب القاهرة .. والتى مازالت صور مواكبهم واصوات إحتفالاتهم قائمة لا تبرح ذاكرة المصريين. وهكذا كانت أيضا ذكرى ثوروة الهوارة بزعامة الأمير حصن الدين بن ثعلب (1253 م /651 هـ)، والتى إنتهت باستقلال الصعيد، حية فى نفوس الهوارة ومستقرة فى وجدان شيخهم همام.

وينجح على بيك الكبير فى مسعاه، فلا تهل سنة 1760 م حتى يصبح "عزتلو أمير اللواء على بك" كبيرا للمماليك ويتولى منصب شيخ البلد. ويمضى بعدها فى تثبيت مركزه بالتخلص من منافيسه من كبار المماليك من أمثال عبد الرحمن كتخدا وحسين بك كشكش وصالح بك شاهين. وأخذ فى تعزيز قوته العسكرية حتى بلغ عدد مماليكه الستة آلاف. ومضى فى تكوين التحالفات ونسج المؤامرات للقضاء على كافة القوى المنافسه له. وينتهى على بك من كبار المماليك الذين ينازعونه سلطانه فى معركة حاسمة دارت رحالها شمال بنى سويف فى سنة 1767 م / 1181 هـ، ليدخل بعد ذلك القاهرة

وقد ثبتت أقدامه فى "إمارة مصر ورياستها.. وظهر بعد ذلك الظهور التام، وملك الديارالمصرية، والأقطار الحجازية، والبلاد الشامية، وقتل المتمردين وقطع المعاندين، وشتت شمل المنافقين، وخرق القواعد، وخرم العوائد" [2-40].

وينجح الشيخ همام هو الآخر فى مساعيه، فلا تحل سنة **1767 م \ 1181** هـ حتى تصبح كافة أقاليم الصعيد، من المنيا إلى أسوان، تحت سيطرته. ويمضى الرجل قدما فى تأسيس شبه دولة. فينشئ الدواوين لإدارة شئون الأراضى الواقعة تحت سيطرته ولرعاية العاملين فيها، ويشكل قوة عسكرية من الهوارة ومن المماليك الفارين إلى الصعيد فـ "كان عنده من الأجناد والقواسة وأكثرهم من بقايا القاسمية إنضموا إليه وإنتسبوا إليه وهم عدة وافرة وتزاوجوا وتوالدوا وتخلقوا بأخلاق تلك البلاد ولغاتهم". وتشيع أخبار مجالسه التى كان يعقدها لسماع شكاوى الأهالى ولحل مشاكلهم ... يستوى فى ذلك الجميع، الغنى منهم والفقير، لا يستكنف من محادثة أجلافهم فكان "اذا جلس مجلسا عاما وضع بجانبه فنجانا فى قطنة وماء وردا فاذا إقترب منه بعض الأجلاف وتحادثوا معه وإنصرفوا مسح بتلك القطنة عينيه وشمها بأنفه حذرا من رائحتهم وصنانهم" **[2-41]**. "وقد أدى النظام الذى وضعه الشيخ همام للأمن والعناية التى كان يبذلها لصيانة الترع والجسور إلى ازدهار الزراعة وتحقيق الرخاء للأهالى" **[2-42]**.

وهكذا كان الصدام بين الرجلين محتوما، فيحشد له على بك الكبير ثلاثة جيوش ويجمع قوادها ويوصيهم قائلا: "إذهبوا إلى أسيوط وإملكوها قبل كل شئ، فإن فعلتم كان لكم بها قوة ومنعة وأنا أمدكم بعد ذلك بالمال والرجال". ويفعلونها وتدور المعركة الفاصلة فى يونيو **1769** م (**1183** هـ) عند جبانة أسيوط لتسفر عن إنتصار ساحق لجيوش على بك الكبير. وبعدها "أقامو بأسيوط أياما ثم ارتحلوا إلى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة. وإجتمع كبار الهوارة مع من إنضم إليهم من الامراء المنهزمين .. فراسل محمد بك ... محمد بك أبو الدهب مملوك على بك الكبير اسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام وإستماله ومناه برياسة البلاد حتى ركن إلى قوله وصدق تهويماته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوائفه ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها مسافة ثلاثة ايام ومات مكمودا مقهورا. ووصل محمد بك ومن معه فرشوط فلم يجدوا مانعا فملكوها ونهبوها واخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأنها لم تكن " **[2-43]**.

ولكن ذكرى شيخ العرب همام بقيت وحفظتها ذاكرة أهل الصعيد وبثوها في كلمات موال حزين يغنونه كلما هيجت مرارة الواقع شوقهم الي عدل همام ويبدأ الموال مناشدا إياه:

قوم ياهمام وإسعى وروح سنار
وازرع وقوت عيالك
فرشوط قادت عليك نار
والبيه عدى وجالك

وكأنهم فى مناشدتهم اياه الذهاب إلى سنار -جنوب الخرطوم بالسودان- يسترجعون ذكريات ماض بعيد .. ذكريات لجوء كهنة آمون منذ اكثر من ألفى وخمسمائة سنة إلى السودان ليضعوا الأساس للدولة نبتا والتى سيكون لملكها بعنخى فضل إنقاذ مصرمن صرعاتها الداخلية وتأسيس الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين (751- 656 ق. م). وتمضى كلمات الموال تتحسر على تدمير "البيت الكبير" ..قصر الأمير همام فى فرشوط:

هياك ياباب هياك
بس ضبتك غيروها
تسعين أوضة وشباك
فى تلا يلك كسروها

وتنتهى على أرض الواقع قصة شيخ العرب همام .. تنتهى لتصبح حدثا تضرب به الأمثال .. وتجربة موحية .. ملهمة لمن سيأتى بعدها وينظر متأملا فى وقائع التاريخ. فها هو ذا أبو التنوير رفاعة رافع الطهطاوى يشير إليها فى كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريس" (1834 م) قائلا: "ولكن لما كانت الرعية لاتصلح ان تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم وهذا ما حصل فى زمن حكم الهمامية فكانت الصعيد جمهورية إلتزامية" [2-44]. وقبله يشير إليها فى أحاديثه الجنرال يعقوب بن حنا.

الجنرال يعقوب بن حنا

جثة لرجل لا يتجاوز عمره السادسة والخمسين .. فى برميل نبيذ .. على ظهرسفينة تبحر فى البحر الأبيض المتوسط متجهة إلى مرسيليا .. وكانت السفينة هي الفرقاطة الإنجليزية بالاس التى أبحرت من رشيد فى العاشر من اغسطس سنة 1801 م، بقياده الكابتن جوزيف إدموندز وهي تحمل على سطحها بعضا من بقايا جنود الحملة الفرنسية المنسحبين من مصر. أما الرجل فقد كان الجنرال المصرى .. يعقوب بن حنا.

هكذا كانت النهاية لشخصية حقيقية كانت فى سيرتها المحكية تبدو كأبطال الملاحم أو كشخوص الأساطير.



الجنرال يعقوب

المعلم يعقوب بن حنا .. مصرى قح ولد فى ملوى - بالقرب من أسيوط فى صعيد مصر- سنة 1745 م لأسرة قبطية متوسطة الحال. وتلقى الطفل يعقوب تعليمه الأولى كأقرانه فى أحد الكتاتيب القبطية المنتشرة فى صعيد مصر حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظ بعض نصوص الكتاب المقدس. وهكذا مضى فى بداية حياته على الوجه المألوف، فعمل فى صباه مساعدا لبعض الكتبة الذين يعملون فى مجال تحصيل الأموال وضبط الحسابات. وفى عهد على بك الكبير يلتحق بخدمة سليمان بك أغا الانكشارية ليدير له إلتزامه فى اسيوط ويجبى أمواله ويضبط دفاتر حساباته .. وليتعلم أيضا الفروسية واللعب بالسيف.

وهكذا مضت حياة الرجل فى نمط مألوف .. مثلها فى ذلك مثل حياة أسلافه وأقرانه مثل المعلم جرجس الجوهرى والمعلم أنطون أبو طاقية والمعلم فلتاؤس. هكذا مضت حياته حتى حدثت "نكتة الفرنساوية" وحلت "سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة"، على حد قول شيخنا الجبرتى فى وصفه للأحداث التى أوقعتها الحملة الفرنسية فى الديار المصرية عندما وصلت إليها سنة 1798 م (1213 هـ) بقيادة نابليون بونابرت. وحركت الأحداث فى نفس الرجل شجونا وأحيت فى نفسه آمالا فتحول من مجرد "عشار" .. جابى للضرائب .. وماسك لدفاتر علية القوم من الأمراء .. تحول إلى زعيم سلك طريقا آمن بجدواه لتحرير قومه من جور العثمللى ومن ظلم المماليك.

وما إن حانت الفرصة فـ "أن يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطة .. جمع شبان القبط وحلق لحاهم، وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم، مشابه لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم .. فى غاية البشاعة وصيرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد" [2-45]. وهكذا فعلها الرجل المصرى وحاول إنشاء أول جيش مصرى على النظام الحديث. وستوحى فعلته تلك للجندى الألبانى الذى جاء مع العسكر العثمانية إثر رحيل الفرنسيين وقدر له أن يكون مؤسسا لمصر الحديثة، ستوحى له بتجنيد المصريين. فيكتب لإبنه إبراهيم فى 12 مارس 1122، وبعد 20 سنة من محاولة الجنرال يعقوب، يكتب إليه قائلا: "...كما أن من البديهى أنه لو ذكر للفلاحين مثلا بأن الفرنساويين لما أرادوا أخذ عسكرمن القبط لم يخالف القبط فى ذلك ولم يتخلفوا عنه..." [2-46].

وفى يناير1883 م (1238 هـ) تشكل نواة لجيش الفلاحين المصريين من ستة آلايات تضم 2400 جندى .. وفى 9 فبراير 1824م، يكتب قنصل فرنسا العام فى مصر إلى وزير خارجيته فى باريس قائلا: "إن هذا الجيش التام النظام والترتيب على الطريقة الفرنسية يتألف من سودانيين وفلاحين مصريين قوادهم من العثمانيين والمماليك وقد بلغوا فى دقة المناورات درجة تستوجب الفخار للضبط الفرنسيين الذين علموهم" [2-47]. ويتولى محمد سعيد بن محمد على ولاية مصر فى 14 يوليو 1154م فيعمل على ترقية المصريين إلى رتب الضباط ويكتب خطابا إلى مدير أسيوط فى 1857 م يقول له فيه إن "قبول وأخذ المسيحيين للخدمة العسكرية موافق لإرادتنا". ويصرح البابا كيرلس الرابع، أبو الإصلاح، لما أشيع عنه معارضته لتجنيد الأقباط، قائلا: "يقول البعض أننى طلبت إلى الباشا أن يعفى أولادنا القبط من الخدمة العسكرية فحاشا الله أن أكون جبانا بهذا المقدار، لا أعرف للوطن قيمة أو أفترى على أعز أبناء الوطن بتجريدهم من محبة أوطانهم وعدم الميل لخدمته حق

الخدمة والمدافعة عنه، فليس هذا ما طلبت ولا ما أطلبه" [2-48]. ويتحقق حلم الجنرال يعقوب بإنشاء جيش من المصريين بعد موته بخمسين سنة.

ولا تنتهى قصة الجنرال يعقوب بوفاته بعد يومين من إبحار الفرقاطة الانجليزية، فخلال هذين اليومين تدور بينه وبين الكابتن جوزيف إدموندز قموندان الفرقاطة حوارات، حدثنا عنها الأخير قائلا: "والسفينة بالاس الموضوعة تحت إمرتى قد إستقبلت على ظهرها فى مصر، قبطيا ذا سمعة ممتازة وهو أحد زعماء هذه الطائفة ويتمتع بحكم هذه الصفة بنفوذ عظيم. وقد جعله الفرنسيون قائدا على فليق ليحصلوا على مساعدته. وقد أظهرت نحو هذا المنفى العاثر الحظ بعض مظاهر الرعاية الخفيفة فدفعه ذلك إلى محادثتى عن وطنه. وصرح لى أن من رأيه ان أى حكومة تحكم بلاده تفضل حكومة الترك، وأنه إنضم إلى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية فى تخفيف آلام مواطنيه وأن الفرنسيين خدعوهم ولهذا فالمصريون الآن يحتقرونهم إحتقارهم للترك فبما مضى، وإنه لا يزال يأمل فى خدمة بلاده بواسطة الحكومات الأوروبية ويعتقد أن رحلته إلى فرنسا سوف تسفر عن هذه النتيجة" [2-49].

وبعد موت الجنرال يعقوب يكتب لاسكاريس، الفارس الذى كان يقوم بدور المترجم أثناء الحوار الذى دار بينه وبين الكابتن إدموندز والذى رافق الجنرال فى الخمسة شهور الأخيرة من حياته، يكتب مذكرة مؤرخة فى 21 سبتمبر1801 م وتحتوى على بنود الحوار. وعن حكومة مصر المستقلة تأتينا هذه الكلمات: ".. فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية .. كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت عليك قصتها، فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الإحترام والطاعة والحب.." [2-50].

تنهيدة المملوك

شخصية قاهرة .... وروح آسرة

د. نعمات أحمد فؤاد



إنها روح الأمة .. روح مصر، التواقة أبدا إلى الإستقلال بنفسها .. إنها شخصيتها الآسرة التى تحل فى نفوس أبنائها .. من صلبها كانوا أو مجلوبين.. تحل فيهم فتجعلهم .. كلماتها الحية .. ولسانها الناطق .. وسواعدها التى لا تلين.

كان عمره 31 سنة عندما جلب إلى مصر سنة 1783 م، ليصبح من مماليك مراد بيك. إنه المملوك المصرى محمد بيك الألفى الذى جاء إلى مصر فـ "ترزن عقله، وإنهضمت نفسه، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب والنظر فى جزئيات العلوم والفلكيات والهندسيات وأشكال الرمل، والزايرجات والأحكام النجومية والتقاويم، ومنازل القمر وانوائه. ويسأل من له المام بذلك، فيطلبه ليستفيد منه. وإقتنى كتبا فى أنواع العلوم والتواريخ" [2-51].

وتأخذه مصر بروحها فيجهد ويسعى وقاتل ليستقل بها فيتحلق حلمها الجنين.. "إلا أنه لم يسعفه الدهر وجنى عليه بالقهر وخابأ وإنقضى أجله وخانه الزمان، وذهب فى خبر كان".

وتأتى نهاية "طهماز الزمان وإلا إيش يكون" فى يوم الأربعاء 27 يناير سنه 1807 م بناحية المحرق قرب دهشور. وتصور لنا أخبار الشيوخ الرواة المشهد الحزين ... فها هو ذا المملوك المصرلى يقف وحيدا على تلة في شبرامنت.. ناظرا إلى جهة مصر قبل أن يودع الحياة.. يقف .. ليناجى أمة حل به سرها فأنطقه بما فاه: ".. يا مصر .. أنظرى إلى أولادك وهم حولك ... مشتتين .. متباعدين .. مشردين .. وإستوطنك أجلاف الترك واليهود وأرزال الإرنؤود، وصاروا .. يقبضون خراجك ..ويحاربون أولادك ..ويقاتلون أبطالك ... ويقامون فرسانك ... ويهدمون دورك... ويسكنون قصورك ... ويفسقون بولدانك وحورك ... ويطمسون بهجتك ونورك...". ويقضى المملوك نحبه فتتردد فى جنبات الوادي كلمات حلمه المجهض "إن أعطانى الله سيادة مصر وإمارة فى هذا القطر لأمنعن هذه الوقائع وأجرى فيه العدل ليكثر خيره... وتعمر بلاده ... وترتاح أهله .. ويكون أحسن البلاد .." [52-2].

ويموت "من كان وحيدا في نفسه فريدا فى بناء جنسه. ويموته إضمحلت دولتهم، وتفرقت جمعيتهم، وإنكسرت شوكتهم، وزادت نفرتهم. ومازالوا فى نقص وإدبار، وذلة وهوان وصغار، ولم تقم لهم بعده راية وإنقرضوا وطردوا إلى أقصي البلاد فى النهاية" [2-53]. ويعقب شيخنا الجبرتى على هذه النهاية الحزينة بقوله: " .. ولكن الإقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد، وأهله تراهم مختلفين فى الأجناس.. متنافرى القلوب . منحرفى الطباع".

ولكن تبقى فى قرار .النفوس أصداء كلمات الكاهن المرتل **"نفر روهو"** (حوالى 2000 ق.م) وهو يقول: ".. سيأتى .. سينشر السلام فى الأرضين على الوجه الذى يحبه أهلها .. وسيفرح أهل زمانه .. الأسيويون سيقتلون بسيفه واللوبيون سيحرقون بلهيبه .. والعدالة ستعود إلى مكانها .. والظلم ينفى من الارض .، فهنيئا لمن سيرى ذلك".

القيامة

صبية ولادة

يابا

ولحمها جلاب

طلع الصباح زرغطت فى السكة فرحانة

علي كتفها مولودتها لسه عريانة

وف لحظة

كانت الدنيا دريانة

على إسم مصر

صلاح جاهين

يارب يا متجلى... إهلك العثمللى

همام .. جن على .. يعقوب بن حنا .. محمد الألفى .. شخوص وعلامات على آلام مخاض ولادة عصر جديد، عصر طال إنتظاره ثلاثة قرون ... ومخاض دام ما يقرب من النصف قرن (1760-1805 م) قبل أن تحين لحظة الميلاد .. ميلاد عصر الإستقلال الخامس لأمة المصريين .وتحين الساعة .. فتتابع الأحداث .. وتتوالى الوقائع وتتجلى القيامة .. قيامة الأمة .. في سبعة أيام معدودات .. يحكى لنا عنها شيخنا الجبرتى، وقد عاشها ساعة بساعة، فيقول [2-54]:

اليوم الأول [الأحد 12 مايو 1805 م / 12 صفر 1220 هـ]

"وفيه ركب المشايخ إلى بيت القاضى وإجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى إمتلأ الحوش والمقعد بالناس، وصرخوا بقولهم: **"الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم"**. ومنهم من يقول: **"يا لطيف"**. ومنهم من يقول : **"يارب يا متجلى .. إهلك العثمللى"**. ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك".

اليوم الثانى [الاثنين 13 مايو 1805 م/ 13 صفر 1220 هـ]

وفيه "إجتمعوا (زعماء الثورة) وكذلك إجتمع الكثير من العامة. وركب الجميع وذهبوا إلى محمد على وقالوا له: "إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية". فقال: "ومن تريدونه يكون واليا ؟" فقالوا له: **"لا نرضى إلا بك، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير"**. فإمتنع أولا ثم رضى، واحضروا له كركا وعليه قفطان، وقام إليه السيد عمر (مكرم) والشيخ الشرقاوى، فألبساه له .. وذلك وقت العصر. ونادوا بذلك فى هذه الليلة فى المدينة. وأرسلوا إلى أحمد باشا (الوالى العثمانى) الخبر بذلك، فقال إنى مولى طرف السلطان، فلا أعزل بأمر الفلاحين، ولا أنزل إلا بأمر السلطنة".

ويعلق القنصل الفرنسى على تلك الأحداث بقوله: "يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه .. هذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع [2-55].

اليوم الثالث [الخميس 16 مايو 1806م / 16 صفر 1220 هـ]

وفيه "إستمر أحمد باشا المخلوع ومن معه على الخلاف والعناد وعدم النزول من القلعة، ويقول: "لا أنزل حتى يأتينى أمر من السلطان الذى ولانى". فيجيبه القاضى منذرا "إن إقامتكم بالقلعة هي عين الضرر، فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس المحكمة، وطالبوا نزولكم أو محاربتكم فلا يمكننا دفع قيام هذا الحضور. وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام". و إجتهد السيد عمر أفندى النقيب، وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ والعامة والوجاقلية والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت، لازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ويسرحون أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل، ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور، ثم إتفقوا على محاصرة القلعة.. ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة، وأغلق أهل القلعة الابواب، ووقفوا على الأسوار يبكت بعضهم بعضا بالكلام ويترامون بالبنادق وصعدوا إلى منارة السلطان حسن يرمون منها إلى القلعة".

اليوم الرابع [الأربعاء 22 مايو 1805 م / 22 صفر هـ]

وفيه "ركب السيد عمر أفندى والمشايخ، ومعهم جمع كثيرمن الناس إلى الأزبكية وبعد ركوبهم، حضر الجمع الكثير من العامة والعصب وطوائف الأجناد والوجاقلية، وعصب النواحى وأهل الحسينية، والعطوف، القرافة، والرميلة، والحطابه، والصليبة، وجميع الجهات، ومعهم الطبول

والبيارق حتى غصت بهم الأزقة فحضروا إلى الجامع الأزهر، ثم رجعوا إلى الأزبكية ولحقوا بالمشايخ".

اليوم الخامس [السبت 25 مايو 1805 م / 25 صفر 1220 هـ]

"وفى ذلك: ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس، وذهب إلى حسن بيك أخى طاهر باشا. وكان هناك عمر بيك الذى نزل من القلعة فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة. ومن جملة ما قال: "كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم .. وقد قال تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)". فقال له: "أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل... وهذا ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن اهل البلد يعزلون الولاة وهذا شئ من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه". ثم قال: "وكيف تحصرونا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلونا .. نحن كفرة حتي تفعلوا معنا ذلك". قال: "نعم .. قد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم، لأنكم عصاة".

اليوم السادس [الاثنين 27 مايو 1805 م / 27 صفر 1220 هـ]

وفيه "ركب السيد عمر وصحبته الوجاقلية، وأمامه الناس والعدد والجناد وأهل خان الخليلى والمغاربة .. شيء كثير جدا، ومعهم بيارق ولهم جلبة وإزدحام، بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر .. وإتفق الحال علي اعادة المحاصرة (محاصرة القلعة) .. ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ فى أسباب الاحاطة بالقلعة كالأول. وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء. ووقع الاهتمام فى صبحها بذلك، وجمعوا الفعلة والعربجية، وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل، وأاصعدوا عدة جمال لنقل الإحتياجات والخبز، وروايا الماء تطلع وتنزل فى كل يوم مرتين. وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوى .. وغير ذلك".

وتمضى الأيام حتي ترد الأخبار من الإسكندرية بوصول قابجى (رسول) السلطان "وعلى يده جوابات بالراحة. فحصلت ضجة في الناس، وفرحوا ورمحوا وعملوا شنكا.. ورموا صواريخ فى سائر النواحى، وضربوا بنادق وقرابين بالأزبكية وخارج باب الفتوح وباب النصر والمدافع التى علي أبراج الأبواب".

اليوم السابع [الإثنين 9 يوليو 1805 م / 11 ربيع الاخر 1220 هـ]

وأخيرا "وصل الخبر بوصول القابجى إلى قليوب، وانه طلع إلى بر فوة وسار من هناك. وحضر فى ذلك المشايخ الذين كانوا ذهبوا لملاقاته. فلما أشيع ذلك إجتمع الناس وطوائف العامة وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول، إلى خارج باب النصر. ووقفوا بالشوارع والسقائف للفرجة .. وكذلك النساء والصبيان، وإزدحموا ازدحاما زائد". وكان يوما مشهودا "خرجت فيه أهالى بولاق ومصر القديمة والنواحي والجهات مثل أهل باب الشعرية والحسينية، والعطوف، وخط الخليفة، والقرافتين، والرميلة والحطابة، والحبالة، وكبيرهم حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول وكذلك إبن شمعة شيخ الجزارين وخلافه. ومعهم طبول وزمور .. والمدافع والقنابر نازلة من القلعة. فلم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا ببيت محمد على باشا. وحضر المشايخ والأعيان وقرأوا المرسوم الذى معه. ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جدة سابق، ووالى مصر حالا من ابتداء عشرين ربيع الأول 1220 هـ (11 يونية 1805م) حيث رضى بذلك العلماء والرعية".



محمد على باشا .... والى مصر المنتخب

وهكذا تكون ولادة العصر الجديد للأمة على أيدى أولادها الخلص ... السيد عمر مكرم، نقيب الأشراف، والمشايخ محمد السادات وعبد الله الشرقاوى ومصطفى الهادى ومحمد الأمير وسليمان الفيومى والسيد أحمد المحروقى، شهبندر التجار والمعلم جرجس الجوهرى والمعلم حجاج الخضرى "... وكان مشهورا بالإقدام والشجاعة. عظيم الهمة، وكان شيخا على طائفة الخضرية، وصاحب صولة وكلمة بتلك النواحى (الرميلة) ومكارم اخلاق" [2-56]. وابن شمعة، شيخ الجزارين ومعهم الناس .. ناس مصر المحروسة .. من عياق وزعر وحرافيش وأولاد ناس وتكون واقعة غير مسبوقة .. فلأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ، بإرادة الشعب وهمم الشعب ونتسائل لماذا حدث هذا فى مصر .. ؟ .. وفى مصر بالذات .. ؟ .. ونتأمل التاريخ فتأتينا الإجابة .. والبداهة.

هوجة الاميرآلاي

وتستوقفنا فى رحلة التاريخ صورة .. صورة يرجع تاريخها إلى سنة 1882م .. والصورة لزعماء الثورة العرابية .. أحمد عرابى .. على فهمى .. عبد العال حلمى .. وقد وقع الثلاثة بأسماهئم وتحت كل صورة كان اللقب المصرى. فأى دلالة تستشف وأى مغزى يبين .. ؟. وينفى أحمد عرابى إلى سيلان وتتزع عنه رتبة الباشاوية فيوقع رسائله بـ **"خادم وطنه أحمد عرابى الحسينى المصرى"** فكانت رتبته هي نسبته إلى الوطن.



أحمد عرابى ورفاقه

هكذا كانت الأمة فى نفوس أبنائها، فها هو ذا رفاعة رافع الطهطاوى المصرى القح .. الصعيدى .. أبو ثورة التنوير .. يقول عنها: "أم الحضارات ولم تسبقها فى ميدان المدنية ولا فى حرفة تقنين القوانين وتشريع الأحكام دولة ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة عاقلة ولا أنكرت الإستفادة بنور نبراسها مملكة ولا دولة".

ويقف فلاح مصر الثائر أحمد عرابى، تلميذ ميخائيل افندى غطاس صراف قرية هرية رزنة شرقية، والذى أمضى سنوات عمره الأولى فى أزهرنا العريق، يقف مخاطبا الجموع التى احتشدت فى ميدان محطة مصر لتودعه وهو فى طريقه إلى رأس الوادى بعد ملحمة عابدين: "أنا أخوكم فى الوطنية، وهأنذا بين الأهل والخلان وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الإستبداد وتحرير البلاد وأهلها". فترد الجموع المحتشدة فى صوت هادر "الله ينصر عرابى".

وتقع الواقعة، ويهزم الولس عرابى، فيكتب لمحاميه "كنت محبوبا عند جميع الشعب المصرى ... محبا لخير العموم... موثوقا بأمانتى وشرفى.... وأنه ليس لى غاية شخصية كما يزعم المبطلون ... بل غايتى الوحيدة هى تحرير بلادى ورفاهية أهلها وتمتعهم بخيرها فى ظل حكومة شورية عادلة تعطى الحقوق لأربابها دون فرق بين الأهلين والأجنبيين حتى يكون سكان مصر كالواحد بدون فرق بين تعدد المذاهب والإعتقادات".

هكذا تحدث أحمد عرابى .. الفلاح المصرى .. الأميرآلاى الثائر ... الذى ساهم فى تأسيس أول تنظيم سياسى فى مصرنا الحديثة تحت اسم "**الحزب الوطنى**" وذلك فى سنة 1879 م. هذا الحزب الذى جاء فى أحد بنود برنامجه السياسى "أنه حزب سياسى لا دين له فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين. وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه...".



عرابى فى ميدان عابدين

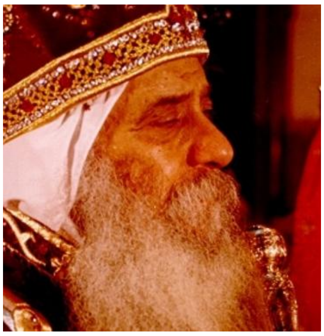
كرونولوجيا الإستقلال

مصر المستقلة		مصر غير المستقلة	
مصر الفرعونية *			
العصر العتيق (3150-2700 ق.م) [الأسر الأولى والثانية]	054		
الدولة القديمة (2700-2200 ق.م) [الأسر الثالثة، الرابعة، الخامسة، السادسة]	500		
الفترة الوسيطة الأولى (2200-1991 ق.م)	092		
الدولة الوسطى (1991-1785 ق.م) [الأسرة الثانية عشر]	062		
الفترة الوسيطة الثانية (1785-1674 ق.م)	111		
		حكم الهكسوس (1674-1552 ق.م)	221
الدولة الحديثة (1552-1069 ق.م) [الأسر 18، 19، 20]	483		
العصر المتأخر (1069-332)	573		
		الفترة الأولى لحكم الفرس (525-404 ق.م)	121
		الفترة الثانية لحكم الفرس (383-340 ق.م)	43
مصر البطلمية (332-30 ق.م)	302		
		مصر الرومانية والبيزنطية (30 ق.م\640 م)	670
مصر الإسلامية			
		عصر الولاة (640-868 م)	228
الدولة الطولونية (868-905 م)	37		
		الحكم العباسى (905-935 م)	30
الدولة الاخشيدية (935-969 م)	34		
الدولة الفاطمية (969-1177 م)	820		
الدولة الأيوبية (1171-1250)	37		
الدولة المملوكية (1250-1517 م)	726		
		الحكم العثمانى (1517-1805 م)	288
مصر الحديثة			
(1805-2005 م)	200		
إجمالى سنوات الإستقلال	3653	**إجمالى سنوات التبعية**	1502

أى أن مصر، عبر تاريخها المكتوب البالغ 5155 سنة، كانت مستقلة لفترة مساوى لسبعين فى المائة من تاريخها المكتوب (3653 سنة)

*** إعتمدنا فى كتابة الجزء المتعلق بمصر الفرعونية على كتاب نيقولا جريمال "مصر الفرعونية" ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكرللدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1993**

ثانية التجليات .. وحدة شعور تدوم



"إن مصر ليس وطنا نعيش فيه .. بل هي وطن يعيش فينا"

الأنبا شنودة الثالث

بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقصية

"ليست مصر مجرد بلد عاش الإنسان فيه منذ آلالف السنين، ولكنها سياج الشوق الذى راح يحمى حضارة الإنسان من العبث .. انها الميلاد والضمير"

شادى عبد السلام

هربت منك .. لقيتنى فيكى
بعدت عنك .. قربت ليكى
سهرت وحدى .. ونست بيكى
غلب حمارى .. وإحتار سبيلى

أحمد فؤاد نجم

"لقد سكنت أصوات الكهنة والكاهنات وانقطعت المواكب وموسيقى العازفين، ولكن صوت التاريخ مازال يتردد فى أبهائها وحجراتها يهتف بمجد مصر". بهذه العبارة إختتم أحمد فخرى كتابه عن مصر الفرعونية. وبنفس العبارة نبدأ رحلتنا في أعماق الشعور المصرى لننصت إلى صوت التاريخ الحى يتردد فى جنباته ... ننصت له وهو يحكى لنا عن إستمرارية بلا إنقطاع .. وديمومة بلا إنفصال لشعور ووجدان... وهو يكشف للناظرين عن قانونا للبقاء لم يعلمونا إياه فى فصول الدراسة ولكننا نعيشه ويعيش فينا مع كل نبضة للقلب وكل حركة للسان .. إنه **"قانون بقاء الشخصية المصرية"**.

إيمحوتب .... أبدا

هل تنقل إلى رجل لا يعرف عد أصابعه .. !!؟ ؟؟؟...

بهذه الكلمات المستنكرة يوضح لنا **أوزير** .. سيد الابدية ورئيس محكمة الآلهة فى عالم الآخرة، من جاءه برجل جاهل ليحاسبه عما فعل فى دنياه... رجل ساءت آخرته لأنه لم يصغى إلى تعاليم **"خيتى بن دواوف"** التى وجهها لإبنه "ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك وليتنى أستطيع أن أريك جمالها .. انها أعظم من أى شئ آخر". رجل سيئ الحظ لأنه لم ينصت لنصائح الحكيم **آنى**: "إدرس فى الكتاب وضعه فى قلبك فيطيب كل ما تقول". ولم "يفتح أذنيه، ويستمع إلى ما يقال حتى يستقر فى عقله وقلبه وتكون له منه ذخيرة فى الحياة ويكون النجاح من نصيبه"، وذلك كما أوصاه **أمنموبى بن كانخت**.

هكذا رفع المصريون قدر من يعلم فـ "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (9 الزمر)، وميزوه فى دنياه وفى آخرته فـ "طوبى للانسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الذهب الخالص، هى أثمن من اللالئ وكل الجواهر لا تساويها .. طرقها طرق نعم وكل مسالكها سلام .. هي شجرة الحياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط، الرب بالحكمة أسس الأرض .. أثبت السموات بالفهم، بعلمه انشقت اللجج وتقطر السحاب ندى" [الكتاب المقدس، سفر أمثال 20-21].

ولم يكن العلم .. الكتابه .. الثقافة .. البلاغة .. المعرفة .. الفصاحة، فى مصرنا القديمة إلا مظاهر تعددت لأقنوم أحد هو الحكمة "ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا" (269 البقرة). أقنوما خصصوا له فى دليلهم إلى السعادة فى عالم الآخرة، **"الخروج الى وضح النهار"** (المعروف بكتاب الموتى)، خصصوا له إبتهالان:

إبتهال دعاء اللوحة والمحبرة (الإبتهال رقم 94)

وإبتهال الوجود فى حمى تحوتى (الإبتهال رقم95).

أقنوم إن حل ببشر تلاشى ناسوته وتأكدت فيه روح الإله. وهكذا إلتحق الإنسان الفانى **إيمحوتب** بن **كا-نفر**، الذى ولد منذ أكثر من خمسة ألاف سنة فى بلدة الجبلين (على بعد 11 كم شمال إسنا) وكان



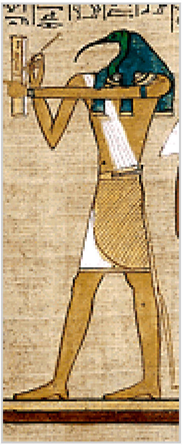
أمين أختام الوجه البحرى .. الأول بعد الملك .. المشرف على إدارة القصر الملكى .. المهندس .. مسجل الحوليات .. كبير كهنة أونو (عين شمس) .. النبيل الوراثى .. رئيس المثالين والنحاتين .. كبير الكهنة المرتلين للملك زوسر (الاسرة الثالثة 2780 ق . م) .. كبير كتاب الآلهة بانى أول الأهرامات .. الطبيب .. الحكيم، إلتحق بزمرة الآلهة الخالدين.

إيمحوتب

وهكذا إنضم إيمحوتب إلى صحبة **"تحوتى"** .. إله الحكمة. ممثل العقل السماوى .. كاتب الآلهة .. سيد الكتابة .. أستاذ البردى .. رب اللوحة والمحبرة .. الناطق بالحق .. عذب اللسان. وصار إيمحوتب رفيقا **"سشات"** .. الإلهة الكاتبة .. راعية الكتابة والحساب والعمارة ... مقدمة دار الكتابه المقدسة .. ربة المخطوطات.



سشات

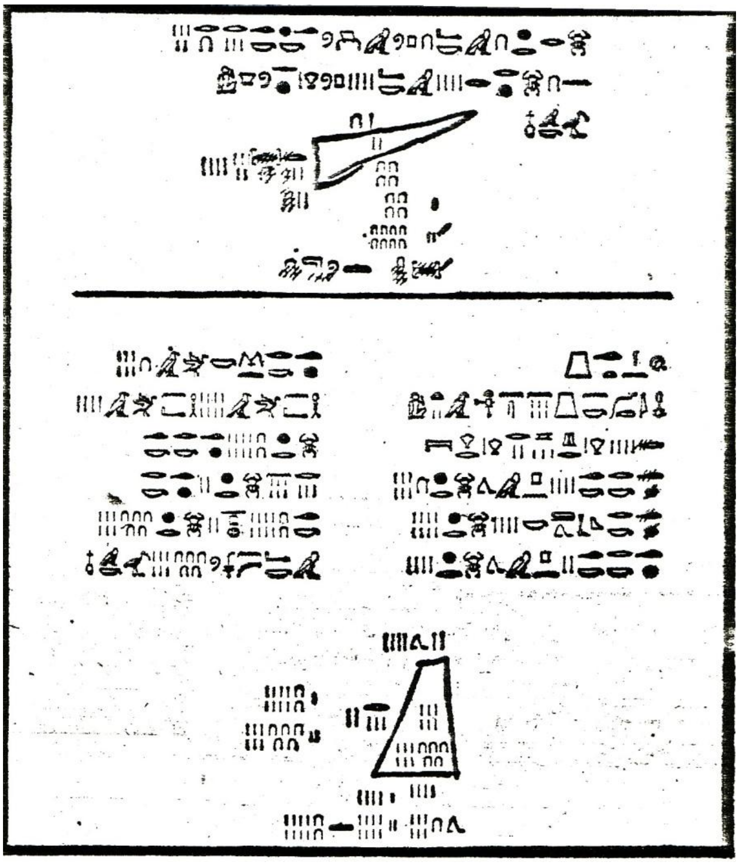


تحوتى

ولم يدر تلميذ الـ **"عتب سا"** (المدرسة الاولية) الصغير أن ما يخطه على اللوح من مأثورات الأجداد:

"إن كتابا واحدا لأعز قيمة من دار لبانيها .. ومن ضريح يقيمه صاحبه فى الغرب .. وانه لاجل من قصر مشيد ومن نصب تذكارى فى ساحة معبد"

انها الكتابة .. أعز من إرث فى مصر""



نموذج لتمارين رياضية لتلاميذ الـ "عتب سا"

لم يدر أن ما كتبه سيبقى مغروسا إلى الأبد فى ضمير الأحفاد. فبعد أن جف مداد تلميذ "عتب سا" الأسرة التاسعة عشرة (1304-1195 ق . م) ومضى على ما كتب أكثر من ثلاثين قرنا، جاءتنا التواريخ بأخبار الشيخ مصطفى الخياط والأسطى إبراهيم السكاكينى. فيحدثنا شيخنا الجبرتى عن العلامة الحيسوب .. الفلكى أبو الإتقان، الشيخ مصطفى الخياط صناعة، يحدثنا فيقول: ".. ومهر فى الحسابات والتقويم والتحاويل والحل والتركيب وتحاويل السنين، وتداخل التواريخ الخمسة، وإستخراج بعضها من بعض، وكان فى كل عام يستخرج دستور السنة من مقومات السيارة، ومواقع التواريخ، وتواريخ القبط، والمواسم والأهلة، ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة، وينقل منها نسخا كثيرة يتناولها الخاص والعام يعملون منها الأهلة وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية .. ولم يزل يشتغل بالنفع والإفادة مع إشتغاله بصناعة الخياطة وتفصيل الثياب وهو جالس فى زاوية المكان يكتب ويمارس مع الطلبة .. والصناع بوسط المكان يفصلون الثياب ويخيطونها ويباشرهم أيضا فيما يلزم مباشرته" [2-58]. أما "الرجل الفاضل النبيه الذكى المتفنن الأسطى الفريد، الأسطى إبراهيم السكاكينى فقد كان يصنع السيوف والسكاكين، ويجيد سقيها وجلائها ويصنع قرباتها، ويسقطها بالذهب والفضة ويصنع المقاشط جديدة الصناعة والسقى والتطعيم، والبركارات للصنعة، وأقلام الجدول الدقيقة الصنعة المخرمة وغير ذلك .. وكان يكتب الخط الحسن الدقيق بطريقة متسقة معروفة من دون الخطوط، لا تخفى. وكتب بخطه ذلك كثيرا مثل مقامات الحريرى وكتب أدبية ورسائل فى الرياضيات والرسميات وغير ذلك" [2-59]. ما شاء الله.. خياط يحترف الفلك وسكاكينى يهوى الأدب .. !!.. وكان الزمان زمانا عثمانللى وقعه على الروح شديد .. ويزول العجب .. فقد جاءتنا مأثورات الأجداد بصفة الحكيم فإذا به "المتفنن فى الأقوال المقدسة وما من شى يجهله. إنه من يعرف الأسرار فى السماء وفى الأرض وفى العالم السفلي. إنه السريع فى كتابة الصفحات الخالية، من يفسر خبايا الحوليات كمن ألفها، وهو كاتب بكل الأساليب وما من شيء يجهله، إنه من يلتمس الناس إجابته ليجدوا فيها السداد" [2-60].

وتمضى الكلمات حية متجددة فى نفوس الأحفاد فالعلم، فى حد ذاته له فى نفوسهم قيمة توهب من أجلها الأبناء فـ "لقد كان التعليم فى الازهر بالرغم مما إتصف به من ضيق وجمود، يتصل بناحية هامة من حياة المتعلمين، وعاطفة قوية متغلغلة فى النفوس .. فقد كان يطلب ويحترم لذاته، وكانت الأسرة تفخر بأنها وهبت بعضا من أبنائها للعلم، وكان الكثيرون من طلاب العلم بعد أن ينالوا منه بغيتهم، يعودون إلى بلادهم أو قراهم فلا يبحثون عن وظيفة يستغلون فيها هذا العلم إستغلالا ماديا، بل يشتغلون بتجارة أو زراعة ويعملون فى الوقت نفسه على إفادة الناس بعملهم [2-61]. وتظل

نصائح **"بتاح حتب"**، الذى عاش حوالى سنة 2670 ق.م، .. لاتغتر بما حصلت عليه من العلم فتسكبر وتتكبر.. وإعلم أنه ليس هناك حد للمعرفة ولا يوجد هناك رجل وصل إلى نهاية العلم .." .. تظل على لسان أحفاده تتردد "طول مالنخل بيتألم (يقلم) .. يعيش إبن أدم ويتعلم".

وتتاح الفرصة فتأتى الصحوة لتبرز مكنون النفوس. يتطلع محمد على إلى بناء مصر الحديثة فينتقي لبعثاته إلى بلاد الفرنجة، طلبة من مختلف الأعراق .. شراكسة .. أتراك .. أرمن .. ألبان .. أكراد. فتضيع أسماؤهم ولا يبرز ولا تبقى إلا أعمال أحفاد تلميذ الـ **"عتب سا"**. وتتعدد النماذج وتتوالى الشخوص.

رفاعة رافع الطهطاوى .. المصرى .. الجرجاوى .. الأزهرى الذى ذهب إلى باريس ليؤم فى الدين بعثة .. فعاد ليؤم فى الحضارة أمة. ترجم وعرب ... كتب وألف .. "تخليص الابريز فى تخليص باريس" (1834 م)، "المرشد الأمين للبنات والبنين"، "جمال الأجرومية"، "القول السديد فى الإجتهاد والتجديد"، "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" (1869 م).هذا المصرى الأصيل الذى حلت به روح أمته فوعى تواصل القيمة فى تاريخها وإستشف منه دورها المرسوم فكتب عنها يقول: "فما إختصت به مصر بين الممالك أن كل مملكة تستتير برهة ثم تختفى، فكأنما نورها شىء ما كان ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان، وأما مصر فأغرب شئ من بقاء شمس سعدها وإرتقاء كوكب مجدها أنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا، لها اليد الطولى والسلطنة المعنوية على سائر مماليك الدنيا". وتأمل هذه الكلمات مليا لترى أى حس مرهف بتاريخ الأمة وبدورها المقدور، تمتع به الرجل فكان لسانه بليغا لهذا الشعور الخفى الذى يعتمل في نفوس المصريين. هذا الشعورالذى ملأ أرواحهم وحارت ألسنتهم وتلعثمت فى البوح به، فجاءهم أبو التنوير .. الصعيدى .. المسلم .. ليزيل الغشاوة ويبعد العتمة ويقولها لهم فى وضوح وجلاء .. نعم أنتم أيها المصريون أبناء عراقة وحضارة بلغت من العمر عتيا ومازالت فى طور الشباب. إن أمتكم كان لها دوما السلطان وكانت لها السلطنة .. سلطنة معنوية .. فقد جاء فى مخطوطات الأجداد "إن كلمات أبناء رع نافذة .. وشفاهم عارفة وحكمتهم بلغت عنان السماء" [62-2].



رفاعة رافع الطهطاوى..... أبو التنوير المصرى

محمود حمدى الفلكى، إبن بلدة الحصة (غربية) .. البلوك أمين الذى ترك الدفاتر والسجلات إلى عالم النجوم والمجرات، فألف الرسائل عن التقاويم الإسلامية وعن العربية قبل الإسلام، وهبط إلى الأرض ليكشف عن مدينة الاسكندرية القديمة ويخطط لمعالمها. ويعود إلى التاريخ فيصنف رسالة عن عمر الأهرام وعن أغراض تشييدها، وينظرإلى المستقبل فكتب بحثا فى التنبؤ بإرتفاع النيل قبل وقوعه، ويكتب رسالة عن فعل كان.

على مبارك، إبن برنبال الجديدة (الدقهلية) الذى تحدى الظروف وقاوم الإحباط ليصبح البناء العظيم الذى إحترف مهنة الأجداد فعمل بالعمارة... عمارة الدنيا وعمارة الإنسان.. فمضى يجدد القناطر .. ويحفر الترع ويعلى الجسور .. ويخطط للمدن .. ويمد خطوط القطارات وانصرف يضع البنية الأساسية لعمارة الإنسان فأسس دارا للعلوم وأنشأ دار للكتب .. ووضع للتعليم لائحة وقانون.

ولا تنتهى قائمة الرجال ولا يكف التاريخ عن سرد سيرهم .. ولم تكن سير تلك الشخوص إلا صورا حية لقيمة حفظها المصريون فى ذواتهم وسعوا إلى تجسيدها ما إستطاعوا إلى ذلك سبيلا. قيمة فى البدء وجدت فبقيت وأبدعت فكرا وخلقت مواقفا وصاغت سلوكا. فكانت من ضمن ما كان رهبنة

المسيحية .. وكانت صوفية الإسلام .. وكان باخوم، أبو الشركة، و أوريجون فيلسوف اللاهوت... وكان الليث بن سعد وذو النون. مصريون من الأصلاب .. بنوا فكرا أصيلا غير مسبوق.

وهكذا ذخر تاريخنا بالمواقف التى لم يكن لأصحابها من سند وعزوة لا سند المعرفة وعزوة الحكمة فكانت لهم عزة النفس وجاه الحق والسلطنة المعنوية. فها هو ذا **ديوسقورس**، البابا الخامس والعشرون لكنيسة الإسكندرية (444 - 457 م)، يرد معنفا الإمبراطور البيزنطى الذى طلب منه الموافقة على قرارات إحدى المجامع الكنسية (إفسس الثانى) بقوله: "إن القيصرلا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة، بل ينبغى له أن يشتغل بأمر مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب. وخير له ألا يميل مع الهوى ولا يتبع غير الحق". وتمر على واقعة البطرك والإمبراطور 800 سنة لنصل إلى عصر السلطان المملوكى المنصور حسام الدين لاجين (1296 – 1299 م) ونرى نائب السلطنة منكوتمر وهو يحاول التدخل فى الأحكام التى أصدرها قاضى قضاة مصر الشيخ نقي الدين محمد إبن دقيق العيد. ويغضب القاضى ويعتزل ولاية القضاء ويرسل إليه السلطان يدعوه إلى القلعة مرة تلو الأخرى ليسترضيه ويطيب خاطره ويقبل القاضى فى نهاية الأمر وبعد إلحاح شديد، لقاء السلطان الذى ما رآه حتى "قام إليه وتلقاه وعزم عليه أن يجلس فى مرتبته، فبسط منديله (القاضى) وكان هناك خرقة كتان فوق الحرير قبل أن يجلس عليه .. وما برح السلطان يتلطف به .. ثم قال له "يا سيدى هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه، إدعوا له. وكان منكوتمر ممن حضر .. فنظر إليه قاضى القضاة ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول: منكوتمر لا يجئ منه شيء. وكررها ثلاث مرات وقام فأخذ السلطان الخرقة التى وضعها على المرتبة تبركا بها، وتفرقها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها" [2-63].

واليوم تأتى إحدى حفيدات تلميذ الـ **"عتب سا"** لتؤكد الحقيقة ... حقيقة ما خطت فرشاته على اللوح المحفوظ من مأثورات الأجداد. فهى تختار "الأبعاد النفسية لمفهوم الإلتزام لدى شرائح من المجتمع المصرى: قياسها، تباينها، مغزاها" كموضوع للرسالة التى تقدمت بها الى جامعة عين شمس (أونو) لنيل درجة الدكتوراه فى علم النفس. وتنتقي الباحثة سبع قضايا لدراستها، كان من بينها قضية عائد التعليم والتعلم فى مقابل مكانة اجتماعية مرموقة للمتعلمين والمثقفين. وتنتهى الباحثة إلى نتيجة منطقية توجز ما هو مسطور فى تاريخ الأمة، فهناك "إتفاق جميع شرائح البحث الخمس – أصحاب أعمال، موظفين، فنيين، حرفيين، فلاحين على الإلتزام بقيمة العلم والتعليم. وهو إلتزام ليس فقط بلقلب والوجدأن بل هو ايضا بالسلوك والفعل. فكافة الشواهد تشير إلى سعى كافة الشرائح الاجتماعية موضع الدراسة، إلى تعليم أولادها بما فى ذلك الشرائح التى فاتها قطارالتعليم".

وهكذا تتأكد بالعلم الحقيقة .. ويبقى خالدا، فى نفوس المصريين إيمحوتب أبدا.



أحد تماثيل الكاتب المصرى القديم

تاريخنا على طرف اللسان

يحبو صغيرنا ويبدأ المشى " **تاتا**" ... يعطش الـ "**نونو**" فيطلب الـ "**إمبو**" ... يجوع فيطلب الـ "**مم**" .. ونكفى على الخبر "**ماجور**"... ولا تسرنا "**كلكعة**" الأمور .. ويأتى شهر رمضان فيغنى أطفالنا لقمره وهلاله وحوى يا وحوى "**اياحا**" .. وتطول القائمة .. "**بتاو**" ... " **شونه**" ... "**مشنة**" ... "**شأشأ**" ... "**عنتيل**" ... "**كانى**" ... "**مانى**" ..... تطول لتشمل ما يقرب من عشرين فى المائة من كلمات حوارنا ... وتمتد لتشمل الحوار بين الانسان الحيوان: "**حا**".. "**عا**" .. "**شى**" ... "**هس**" .. "**بس**" ... "**هش**".

وهكذا تزخر عاميتنا بكلمات لا نجد لها أثرا فى قواميس الفصحى ومعاجم الألفاظ. ونسأل عن أصل الحكاية فتأتينا الاجابة بـ "أننا لا نزال نجد فى لغتنا التى نتكلم بها، نحن المصريين المعاصرين، بعض الألفاظ الفرعونية وبعض الألفاظ القبطية القديمة متداولة. ولا تزال لهجات اللغة القبطية القديمة ملحوظة بوضوح فى العربية الدارجة. فكما أن لهجة سكان الوجه البحرى تختلف عن لهجة سكان الصعيد، كذلك كان الأمر فيى اللهجات القبطية البحيرية والصعيدية والفيومية والاخميمية" **[2-64]**.

ولا يقتصر الأمر على الكلمات بلفظها بل يمتد إلى تراكيبها .. فنحن نقول

راح مصر إمتى؟ بدلا من **متى ذهب إلى مصر؟**

ونقول

راح مصر ليه؟ بدلا من **لماذا ذهب إلى مصر؟**

وحتى وإن اختلف اللفظ، فقد حافظت على المضمون "وهو فى البيضة" .. "مالوش تانى".." يا واد ياتقيل" ... وبقيت أسماء الاشخاص "عيد – بشاي" .. "نور – بسادة" .. "بيومى – بحرى" .. "سيدة – حنة" .. بقيت لتؤكد ان التاريخ حي في الوجدان قائم .. فى نبضة القلب .. في رعشة الخلية ولفظة اللسان ويدور بعاميتنا الحوار .. يدور ليشى بإطلاله العراقة .. ومنطق الأصالة .. فى حديثنا العادى .. اليومى .. البسيط؟

أمثلة من الكلمات القبطية المستخدمة فى اللغة المصرية الحديثة (العامية)

[عن مقالة "كلمات قبطية وهيروغليفية تسرى بيننا" للأستاذ زكى شنودة، جريدة أخبار الأدب، العدد 78، 8 يناير 1995]

أوصاف

"**نمكى**" أى مماطل

"**نطع**" أى ثقيل الظل

"**لكاك**" أى كثير الكلام

"**شملول**" أى غندور

"**مهياص**" أى دجال

"**تاراللى**" أى كثير الكلام الفارغ

"**أخنف**" أى يتكلم من أنفه

"**ياما**" يعنى كثير

"**لكع**" أى كسول ومتباطئ

مأكولات

"**مم**" أى أكل

لقمة" أى كسر خبز"

"**مدمس**" أى الفول المدمس

"**بصارة**" أى طبيخ فول مع عدس

"**كانى**" أى سمن

"**مانى**" أى عسل

"**سباطة**" أى عنقود بلح

أفعال

"**سخسخ**" أى أغمى عليه

"**يكع**" أى يدفع المال رغما عنه

"**لكلك**" أى تخبط فى الكلام

"**اتكعور**" أى وقع

"**يشبشب**" أى يرقى بالسحر

"**تهته**" أى تلجلج فى الكلام

"**يقلش**" أى يستهزئ

"**يحمرأ**" أى يتراجع عن وعده

"**يزوغ**" أى يحنث فى عهده

كلمات وتعبيرات أخرى

"**برضه كده؟**" للعتاب

"**شلوت**" أى ضربة بالقدم

شبشب""

"**بوش**" أى لاشيئ

الله حي



"مدد...مدد" للفنانة افيلين عشم الله

يا حسين

ياأبابا

يا شهيد

وهالبت عارف ورأيك سديد

لمين ود سلمى فى شرع الطريق ؟

ومين فينا باقى .... ومين اللى حي

الله حى ....

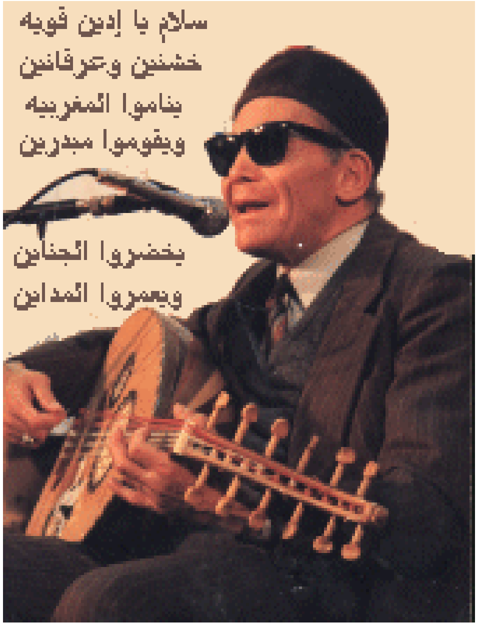
.... الله حى

.... الله حى

بهذه الكلمات يختتم شيخنا المغنى الضرير امام عيسى ملحمته الغنائية **"حلقة ذكر"** ... يختتمها بكلمات ينادى فيها سيد الشهداء ... شهيد الحق حسين بن على، حفيد رسول الله، يناديه طالبا منه المدد ... وكله عشم فهو له مجاور وهو عليه محسوب ... وفي شرع الطريق "المحسوب منسوب ولو كان معيوب".

كلمات يعيدها فى شجن ليرتقى بها وبنا على سلم النغم طبقات وطبقات لتأخذنا فى رحلة طويلة وممتدة بلا حدود فى وجدان الوطن وفي شعور الأمة وأعماق الضمير... رحلة تختلط فيها الأزمنة وتتداخل الأمكنة وتتوحد الشخوص ... فيتجسد الرمز خالصا ... مطلقا ... مجردا عن خصوصية الشخص ومتجاوزا موقعية المكان ومحدوديته الزمان. يتجسد ليأكد استمرارية القيمة وتواصل مكنون

الضمير. المنحة والاخلاص ... الشهادة والقيامة ... الغدر والوفاء ... أجساد يمزقها الباطل لتبقى الروح بالحق حية لاتزول.



الشيخ إمام

وتتداعي الصور... كربلاء في العراق ... أورشليم القدس فى فلسطين ... مكان ما فى أحراش دلتل نيل مصرنا القديمة...

ففي كربلاء تكون المذبحة ... مذبحة أهل البيت (فى يوم عاشوراء من شهر المحرم لسنة 61 هـ \ 680 م). ويقع الحسين على أرضها وقد مزقته ثلاثة وثلاون طعنة وأربعة وثلاثون ضربة سيف غير الرمية بالنبل والسهام. ونزل "شمر بن ذى الجوش" فاجتز رأسه ... ثم عمدوا إلى سلب ما كان عليه من كساء، فأخذ قميصه إسحاق بن حيوة الحضرمى، وأخذ سروالة بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ...، وأخذ عممامته أخنس بن مرثد الحضرمى، وأخذ نعليه الأسود الأودى، وأخذ سيفه رجل من دارم. وترك الحسين يكاد يكون عاريا، ثم وطأته الخيل كما أمر بن زياد حتى رضوا صدره وظهره ..." [2-65]. وتفجع السيدة زينب الأخت الوفية إذ ترى أشلاء أخيها ملاقاة ومتبعثرة امامها علي الرمال فتصرخ فى لوعة: "... يامحمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسن بالعراء مرمل بالدماء ... مقطع الأعضاء". ولم تطق السيدة الجليلة رؤية أهل الكوفة وهم يبكون الحسين فمضت تقول: "أما بعد ياأهل الكوفة أتبكون ...!؟.. فلا سكتت العبرة ولا هدأت الرنة انما مثلكم مثل الذى نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثا. فابكو كثيرا وأضحكو قليلا فقد ذهبتم بعارها وشنارها. وكيف ترخصون قتل سبط الرسول وهو سيد شباب الجنة، أتدرون أي كبد فريتم، وأي دم سفكتم، وأي

كريمة أبرزتم، لقد جئتم شيئا تكاد السماوات تنفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا" [2-65]. وتأتى السيدة الكريمة الى أرض الكنانه لتقيم بها، ويتوفاها الله في 14 رجب لسنة 62 هـ (27 مارس 682 م). وتصبح أم هاشم ... صاحبة الشورى ... رئيسة الديوان ... وغفيرة مصر.

وفي أورشليم القدس "أخذ عسكر الوالى يسوع (المسيح) إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة فعروه وألبسوه رداءا قرمزيا وضفروا إكليلا من شوك وقصبة في يمينه ... وبصقوا عليه وضربوا على رأسه، وبعدما إستهزؤا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضي به للصلب" [متى 27-31]. "وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتى كن يلطمن وينحن عليه، فإلتفت إليهن يسوع وقال يا بنات أورشليم لا تبكين علي بل إبكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه هو ذا أيام تأتى يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التي لم ترضع" [لوقا 26-29]. "ولما أتوا الي موضع يقال له الجثلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة أعطوه خلاا ممزوجا بمرارة ليشرب ولما ذاق لم يرد أن يشرب" [متى 32-3]. "ثم أن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع أخذو ثيابه وجعلوها أربعة أقسام لكل عسكرى قسم، وأخذو القميص أيضا وكان القميص بغير خياطة منسوج كله من فوق فقال بعضهم لبعض لا نشقه بل نقترع عليه لمن يكون" [يوحنا 23-24].

وفي مكان ما من أحراش دلتا النيل، تحمل "**إيزه**"، الزوجة الوفية

"إيزه، الماهرة، التى صانت أخاها، وبحث عنه.
ولم تدخر وسعا حتى وجدته،
قد ظللته بريشها ومنحته الهواء بجنا حيها،
وصاحت من فرط سعاتها،
إذ عادت بأخيها إلى الوطن.
وأزالت الفتور عن الجسد الهامد،
وأخذت بذرته فى جسدها" . [2-66] .

تحمل التابوت الذي يضم جثمان الزوج والشقيق الإله "**أوزير**".. سيد الأبدية.. رب العالم الآخر.. أبو الشهداء.. المقلب دوما بالصالح ... الذى نزل إلى الأرض ليحكمها نيابة عن الإله جب إله الأرض.

فحكمها بالعدل وكان لها حياة،
"أما أنت.. فإن النيل ينبع من عرق يديك،
وأنك تنفث الهواء الذى فى صدرك إلى صدور الناس،

فتهبهم القداسة.
وفيك توجد الشجرة وخضرتها،
الأعشاب والنباتات والشعير والقمح،
وشجرة الحياة ....." [67-2] .

تحمله وتخفيه بعد أن نجحت أولى حلقات مؤامرة الشر وغدر الإله ست بأخاه الرب الصالح أوزير فأودعه فى تابوت وألقى به فى النيل بعد أن أحكم إغلاقه بمصهور الرصاص. وتخرج إيزه، الزوجة الوفية، ساعية وراء جسد الشهيد حتى تجده وقد حط الرحل فى أرض الغربة فتعود به إلى أرض الوطن. وهناك تحنو بدفئها على الجسد الهامد وترويه بدموعها ليبعث حيا ويقوم ليودعها بذرة الطفل الإلهى.. وريثه الشرعى على عرش مصر الملك الإله **"حور"** (حورس). وهكذا لا يجنى ست ثمرة غدره فيظهر مرة أخرى ليمزق جسد الإله الشرعى إلى إثنتين وأربعين قطعة يفرقها بنفسه على أنحاء مصر. وتفجع الزوجة الوفية والأخت المخلصة للجريمة الجديدة، ولكنها تمضى بصحبة أختها نفتيس تلملمان أشلاء الشقيق وهن عليه تنوحان نواحهما الخالد الذى قر فى قلوب الأحفاد وتنادى ايزة فقيدها قائلة

" تعال إلي
اليوم هناك ظل على الأرض
لقد سقطت السماء على الأرض
هيا تعال معى
الرجال والنساء فى المدينة يبحثون عن سيدنا
من كانوا على الأرض أيام سيدنا
تعال إلى، السماء سقطت على الأرض
الاله لابد أن يعود الى مكانه
تشم الريح بأنفك
لقد ذهب السيد إلى مكانه
هيا يا رع إلق عليه التحية.
شرك سيرتد إليك ياصانع الشر
هيا يا سيد الحب
تعال إلي اليوم ياسيدى لأتملى بطلعتك
أخى تعال نراك

ذراعاى ممدوتان ... تحية لك

ذراعاى مرفوعتان ... لتحميك

أمشى فى الطرقات، أتنسم حبك

أهيم على الأرض، ولا أكل من البحث عنك

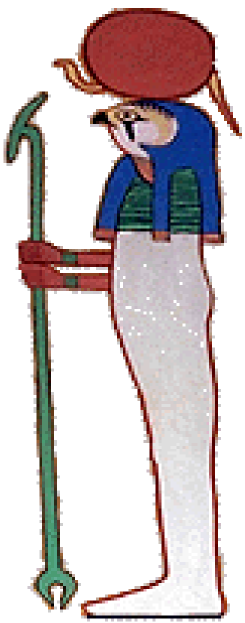
النار تضطرم فى أحشائى من هواك

هيا تعال حتى أراك" [2-68].

وتنجح الأختان في لملة أشلاء الإله الشهيد وتكون قيامته الثانية ليعتلى عرش الأبدية ويكون ربا للعالم الآخر وسيدا لملكوت السماء. وتتواكب الأحداث وتمتزج الوقائع وتستخلص العبر وتقام المثل لتبقي في صلب الأمة خالدة لاتزول ... اذ جاءت على هواها وتبقى الشهادة فى سبيل الحق والايمان، عادة ... وشرعا للطريق.



إيزه (ايزيس) و أوزير (أزوريس)



حورس



إيزه ترضع حورس

هتاف الصامتين

نص علي مشاهدة مقبرة ... جملة على واجهة منزل ... كلمات على لافته دكان صغير فى حارة الاسكندرية أو زقاق قاهرى أو قرية مصرية ... عبارات على سيارة نقل ... تهنئة على صفحة جريدة يومية أو تعازى فى صفحة الوفيات ... وتطول القائمة لتشى بملمح فريد اختصت به الأمة فكان هتاف الصاميتين:

"هذا من فضل ربى"

"كده رضا"

"اذا أردت الغفران من الرحمن فأنظر الى نفسك فقط"

"ياناس ياشر ... كفاية قر"

"ماتبصليش بعين ردية شوف اللى اندفع فيه"

"لا تتعجب انها ارادة الله"

"العين صابتنى ورب العرش نجانى"

"الستار موجود"

"الأرزاق على الله"

ويمضى الصامتون فى هتافهم حتى بعد أن يواريهم التراب، فتحمل لنا شواهد قبورهم أصواتهم التي لم يخفف من علوها مرور آلاف السنين: "أنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض المارون بهذا القبر جودوا علي بقربان جنازى مما عندكم فيؤتى به الي لأنى كنت انسانا محبوبا من الناس، فلم أجلد قط أي موظف ما كان منذ ولادتى ولم أستول على متاع أي شخص قسرا... لقد فعلت ما كان يحبه الناس ويرضى الآلهه حتى يجعلوا بيت أبديتى يبقى ... وإسمى موضع الحمد على ألسنة الناس".

ويبقى الصوت مسموعا فى وجدان الأمة لتذهب نساء المصريين فى أول خميس من رجب وفى المواسم والأعياد لزيارة قبور موتاهم فيستدعى الفقهاء للقراءة، ويفرق الفطير والفاكهة على روح الفقيد.

ويأتينا صوت حاكم مقاطعة "جبل الثعبان" ... يأتينا من وراء أكثر من 2077 سنة ... يأتينا لنراه وهو يبرئ نفسه أمامنا نحن الاحياء من أحفاد أحفاده "لقد أعطيت خبزا لكل الجائعين فى جبل الثعبان، وكسوت كل عريان فيها، وملأت الشواطئ بالماشية الصغيرة، وأشبعت كل ذئاب الجبل

وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير.. ولم أظلم أحد فى ممتلكاته حتى يدعوه ذلك إلى أن يشكوني لإله مدينتى.. ولم يوجد إنسان كان يخاف غيره ممن هم أقوى منه.. وإني لم أنطق كذبا.. وإني كنت إمرأً محبوبا من أبيه.. ممدوحا من أمه.. رفيع الأخلاق مع أخيه.. ودودا لأخيه ".

ويطلب راحل من جدود الأجداد الدعاء له ويحض عليه عابر السبيل، فيكتب علي شهادة قبره: "أنت الذى تعيش وتبقي، أنت الذى تحب الحياة وتمقت الموت، إلى كل من يمر بهذا القبر، إن كنت صفر اليدين، فتحدث بفمك هكذا:

ألف من الخبز، ومن الجعة، ومن الثيران، ومن الأوز
ومن أوعية مصنوعة من الرخام،
ومن التيل ألف من كل الأشياء النقية
إلى إنيوتيف بن خيو"

واليوم لا ينسي الراحلون من أحفاده كتابة بيتين من الشعر على شواهد قبورهم

يا زائرى لاتنسى
من دعوة لى صالحة
وإرفع يديك إلى السما
وإقرأ لروحى الفاتحة



شاهد أحد القبور من العصر الفاطمى

أبو ستة أوبل

وكان اليوم سبتا من سبوت سنة 1439م (842 هـ) وفيه طاف المنادون بشوارع القاهرة المملوكية معلنين لأهلها خبر ترحيل كبير أتابك عسكر السلطان جقمق إلى الإسكندرية. وما كاد النبأ ينتشر حتى غصت جوانب الطرق من قلعة الجبل إلى نهر النيل بحشود العوام الذين أبوا إلا أن يقوموا بفروض الإحتفاء والتكريم اللائقة بالأمير الكبير ... قرقماس. وما إن يلوح الموكب من بعيد وتظهر المشاعلية توسع الطريق للمير المقيد فى الحديد حتي يعالى صوت الجماهير المحتشدة بأغنية تكريم لصاحب المقام الرفيع:

يا قرقماس إفو عليك

عملت عملة وجت عليك

ولا تفوت شيخنا المقريزى الواقعة، فيحدثنا عن سر هذا الحب الجارف الذى تنكه العامة للسيد قرقماس فيقول: "أنه كان من الكبر والزهو والإعجاب وفرط الرقاعة، على جانب كبير من العسف والجبروت وشدة البطش، بحيث كان إذا عاقب يضرب الألف ضرية وأزيد" [2-69]. ويستطرد إبن أياس قائلا: "فإنه لما تقدم ترفع ترفعا زائدا إعجابا بنفسه، وتكبر على غيره" [2-70]. وهكذا صارت حكاية قرقماس أمثولة للرائح وللغادى فى أسواق القاهرة. وكانت العامة تقول عنه **"الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس"**. وكانت تواجه من يحاول أن يفترى عليها بقولها له **"لك ذلة يا قرقماس"**.
وتمر على واقعة قرقماس أكثر من أربعمائة سنة وتهل سنة 1882 م لنرى جماهير شعبنا وقد خرجت لتندد بمن خان زعيمها وقائد غضبتها الاميرآلاي الفلاح أحمد عرابى وهى تغنى:

يا توفيق ياوش القملة

مين قالك تعمل ده العملة

وما بين الواقعتين يذخر تاريخنا بأخبار مواكب القرقماسات من كل شكل ولون. ففى سنة 1310 م / 709 هـ، نجح الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار فى الإطاحة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ونفياه إلى قلعة الكرك. وتولى أولهما السلطنة وتسمى بركن الدين، أما الثانى وكان أجرد ليس بلحيته وشاربه سوى شعيرات قليلة فقد تولى منصب نائب السلطنة. وما إن إستتبت لهما أمور السلطنة حتى إشتدت وطأتهما على الناس فإفتريا وتكاثرت مظالمهما وتفاقم الأمر فأبى النيل أن يفى كعادته وفاض الكيل بالناس فخرجت كعادتها المرعية فى مثل هذه الأحوال، خرجت تعرض بهما مستهزئة:

سلطاننا ركين

ونائبنا دقين

يجبنا الماء منين

جيبوا لنا الأعرج

يجى الماء ويدحرج

ويعود السلطان الشرعى الناصر محمد بن قلاوون وكان بقدمه عرج خفيف إلى السلطنة ويحكم المحروسة ما يزيد على 31 سنة.

ويبدو أن هذه الطريقة كان لها مفعولها الأكيد، ففى سنة 1389 م/791هـ نجح الأمير يلبغا الناصرى فى الإطاحة بالسلطان برقوق ونفاه كالمعتاد إلى قلعة الكرك ونصب مكانه سلطانا إمعه هو أمير حاجى. أما السيد يلبغا فقد تولى منصب الأتابكية وترأس عسكر السلطان. وترك الأتابكى الجديد لمماليكه الحبل علي الغارب فنزلوا إلى الشوارع يعيثون فسادا ويطيحون فيى مخاليق ربنا. فما كان من الخلق، وقد ضجت من أفعالهم، إلا اللجوء إلى واحد من أمضى أسلحة حربهم النفسية، فصنفوا فيهم قولا غنته القاهرة:

راح برقوق وغزلانه

وجاء الناصرى وتيرانه

وسرعان ما جاءت النتيجة. فما إن أهلت سنة 1390 م/ 792هـ حتى دخل السلطان برقوق مدينة القاهرة و ".. خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها، والعساكر بلبوسها الحربية، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، ومعهم شموع كثيرة مشعلة، وخرج من عامة الناس رجالهم ونسائهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شىء زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتي لقوه وأحاطو به" [2 -71].

وقد كانت إقامة الجرسات (مواكب التجريس) واحدة من الإبداعات المصرية الأصلية التى ما فتئ يستخدمها فى حربه النفسية ضد من لايرضى عن أفعالهم. ففي سنة 80 م، إنتهز يهود الإسكندرية فرصة مرور أحد ملوكهم، المعينين من قبل الإمبراطور الروماني، بالمدينة ليدسوا بين واليها وبين رعيته من السكندريين. فما كان من هؤلاء إلا أن أتو بواحد من بهاليل الإسكندرية، وكان يدعى "كرنبة "، وأحاطوه بحرس شرف هزلى وإقتادوه إلى إستاد المدينة الرياضى. وهناك ألبسوه سجادة بالية كأنها عباءة السلطة وتوجوا رأسه بلحاء من البردى وقلدوه صولجان الملك .. ساق بردية. وبعد إتمام مراسم التتويج زفوه في موكب حافل طاف شوارع المدينة وهم يهللون له .. **مارن** .. وهى كلمة سورية كانت تعني الملك [2 - 72].

ولبهاليل شعبنا حكاية تطول، فهم جهازه الإعلامى ولسانه الناطق برأيه الصريح فيما يراه من أمور. وإليك واحد من مشاهيرهم الذى حفظ لنا التاريخ ذكره، إنه سيبويه المصرى الذى عاش فى عصر الدولة الإخشيدية (935 – 969 م). وكان بهلولنا هذا يظهر الحمق ويدعى الجنون، فيقف في الأسواق ليعظ الناس مقحما فى وعظه السب والهجاء لمن لم يرضى عن أفعاله. وفى إحدى وقائعه الشهيرة، والتى سجلها له معاصروه، كان صديقنا ممتطيا حماره فى أحد أيام الجمع عندما استفزه تدافع الحشود وهي تسعى لرؤية موكب الإخشيد وهو متجه لتأدية الصلاة. فما كان من صاحبنا إلا ان نزل عن حماره وتوسط الجموع صائحا فيها: "ماهذه الأشباح الواقفة والتماثيل العاكفة ..؟؟.. سلطت عليهم قاصفة يوم ترجف الراجفة .. تتبعها الرادفة .. وتغطي لهم قلوبا واجفة.." فهمس له أحد الواقفين محذرا: "هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة". وهنا إنفجر صاحبنا صارخا فيهم :" هذا الأصلع البطين.. المسمى بالبدين .. قطع الله منه الوتين .. ولا سلك به ذات اليمين .. أما كان يكفيه صاحب أو صحبان .. ولا حاجب أو حاجبان .. ولاتابع أو تابعان ..؟.. لاقبل الله منه صلاة .. ولا قرب له زكاة .. وعمر بجثته الفلاة .. ". وبعد هذه الخطبة البليغة، امتطى لسان الأمة حماره موليا ظهره للموكب المهيب .. واستانف المسير.

ولم يكن تحامق البهاليل و "إستهبالهم" إلا طريقة من الطرق التى لم تكف عبقرية شعبنا عن إبتكارها. فها هو ذا موكب الخليفة الفاطمى العزيز لدين الله (975 – 996 م/365 – 386 هـ) يمضى أمامنا وهو بداخله متبخترا فى أبهة الخلافة .. فيسبقه السقائون يرطبون له الطريق .. ويحيط بفرسه ألف من الركابية بعمائمهم الكبيرة وسيوفهم المذهبة .. وحوله عشرون من صبيان الخاصة حاملين الرماح برايات الحرير .. هاهو، والعمامة الكبيرة المعروفة بشدة الوقار تزين رأسه الكريم، يلمح بين رعيته المحتشدة إمرأة رقيقة الحال تمد إليه يدها برقعه مكتوبة. ينظر إليها من عليائه ويتقدم إليها ويتناولها منها. فإذا بما تصوره شكوى أو رجاء ليست إلا رأى رعيته الصريح فيه. وتصبح "فضيحته بجلاجل" ، فالمرأة المسكينة لم تكن إلا دمية ورقية أقامها الناس وألبسوها ملابس النساء. هذا ما فعله الناس مع العزيز وكان حاكما رؤوفا برعيته، ويؤكد لنا أبو شاكر المعروف بإبن الراهب شيوع تلك الوقائع، فقد "كان الناس يدسون لحاكم الرقاع المختومة التى تحمل فى طياتها السب له ولأسلافه والدعاء عليه" [2 – 73] .

ويمضى الشعب الذى وصفه الشاعر ثيوكربتوس، اليونانى اللغة والسكندرى الإقامة (300م) وصفه بأنه " شعب ماكر .. لاذع القول .. روحه مرحه" [2 - 74]، يمضى فى إبداعاته فيبتكر فنا جديدا هو فن **"التسميات الكاريكاتورية"**. فنا يصور لنا، فى عبقرية لماحة وذكاء ساخر، ملامح الشخصية.

وتأتى الكلمات القليلة، فى إيجاز مسهب وبلاغة فصيحة، حاوية لمعالم الإنسان. فعندما إكتشف السكندريون فى إمبراطورهم الرومانى فسباسيان (70 م) تهالكه المقيت على جمع الأموال وحرصه الشديد على فرض ضرائب جديدة لقبوه بـ "الفساخنجى". ولما تبينت لهم طفاسته الهائلة في ملاحقته لأحد أفراد رعيته البسطاء ليرد له مبلغا تافها من المال قدره ستة أوبلات (دراخمة واحدة) ، منحوه لقبا جديدا هو "أبو ستة أوبل" [2 -75]. فلما إرتدع ورفع الضرائب الجديدة التى كان قدرها على السكندريين، علق الأخيرون علي قراره قائلين فى تهكم : "حسنا .. إننا نصفح عنه لأنه لايعرف كيف يسلك مسلك القياصرة".

وتذخر كتب التاريخ بالألقاب التى أطلقها شعبنا على من كانت أفعاله لاتحوز رضاه. فهو يطلق على السيد علم الدين عبد الوهاب الطنساوى، أحد وزراء السلطان برقوق (1382 – 1399م / 784 – 801 هـ) ، لقب **"سن إبرة"**. أما الطواشى شمس الدين صواب السعدى، مقدم المماليك فى عصر نفس السلطان، فيلقب بـ **"شنكل الاسود"**. وكان **"فار السقوف"** هو القب المختار للأمير ناصر الدين، وكان ضامنا للمعاملات فى عهد السلطان أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاوون (1346–1351 م/748–752 هـ). وكانت المعاملات نوعا من الضرائب التعسفية التى يفرضها السلطان على التجار وذوى اليسار وأرباب العقار. ولاتنتهى القائمة فهناك **"صنجق سته"**، وكان لقبا لبك مملوكى حصل على ثروتة من زوجته، أما **"السبع بنات"** فهو اللقب الذى أطلقه شعبنا على مماليك علي بك الكبير بعد أن خذلوه في محاولته للاستقلال بمصر. وتمتلئ القائمة بالألقاب .."**بارم ديله**".. "**بعجر أغا مافيه إلا شناب**".. "**إيش كنت أنا**".. "**قوله**".. ولم يسلم حتى الطاعون من لسانهم الساخر فأطلقوا عليه "**قارب شيحة الذى أخذ المليح والمليحة**". ولعله من المؤسف حقا أن تخلو حوليات مؤرخينا العظام من أى أخبار عن السيد شيحة هذا وعن أخبار قاربه الشهير..؟؟.

وكأن ما إبتدعته القريحة المصرية من أسلحة للحرب النفسية لم يكن كافيا فهاهو ذا الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (996 – 1020 م/386 – 411 هـ) "يأخذ الحكاية بجد" ويدعى علمه بالغيب. فما كان من شعبنا، وقد نفد صبره من أفعاله، إلا ان كتب إليه رقعة من الورق ولصقها بالمنبر فى مكان قعوده. وكان فيها بيتان من الشعر فقط لاغير [2 – 76]:

بالجور والظلم قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أوتيت علم غيب

بين لنا كاتب البطاقة

ولما زاد حزم الامير بهاء الدين قراقوش، وزير السلطان صلاح الدين الأيوبى (1171 – 1192 م / 567 – 589 هـ) ، و "حبكها حبتين زيادة"، صنف فيها شعبنا كتابا هو **"الفاشوش فى حكم قراقوش"** يسخر فيه من أفعال سيادة الامير. ولا تأخذنك الظنون بعيدا، فلم يكن مؤلف هذا الكتاب الأسعد بن المماتى (1150 – 1210 م) رجلا من أرازل العامة، بل كان رجلا مصريا صميما يرجع نسبه إلى أسرة عريقة من أقباط أسيوط. وشغل رجلنا هذا، وكان من أرباب القلم وتولى أرفع المناصب، فقد تولى "ديوان الذكاة". كما كانت له مؤلفات في غاية الجدة مثل "قوانين الدواوين".

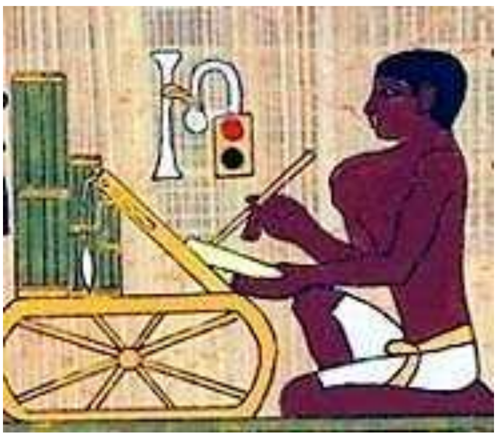
ويمتلىء معجم ألفاظ عاميتنا بالمفردات..**النقورة**.. **المقوزة**.. **التريقة**.. **النقرزة**.. **التجريس**.. **التنكيت**.. **التبكيت**.. وتبقى الكلمات دلالات على أسلحة شعب أعزل فى مواجهة إفتراءات الحكام.



كاريكاتير الحيوانات ... من الفن المصرى القديم

عاجل .. من أهناسيا للامام

يحكى أنه فى سالف الزمان، وفى الألف الثانية قبل الميلاد وفى عهد الملك **"نب كاو ورع"** الذى هو من ملوك الأسرة التاسعة أو العاشرة من أسر فراعين مصر (2000 – 1715 ق.م) أن فلاحا يدعى **"خو إن انوب"** من وادى النطرون قرر الذهاب إلى أهناسيا ليبادل بما زرعت يداه مؤونة لأهل بيته، فنراه يخاطب زوجته ماريا قائلا: "وانظرى ماريا ... إنى سأحضر إلى مصر كي أجلب مؤونة لأولادك. إنطلقى وإكتالى لى القمح الذى تركته فى الشونة ... عندك كيلان طعاما لك ولكن إصنعي لى من المكايل الستة الباقية خبزا وجعة عن كل يوم أنفقه هناك". هكذا كانت بداية الحكاية التى حفظت لنا تفاصيلها أوراق البردى وكرسات تلاميذ الـ "عتب سا" (المدارس الإبتدائية في مصرنا القديمة). هكذا كانت البداية بداية مألوفة عادية تحدث في مصرنا منذ آلاف السنين. فلاح بسيط يطلب من زوجته أن تعد له زوادة الرحلة وزاد الطريق. وتمضى رحلة صاحبنا بصحبة حماريه المحملين بخيرات أرضه تمضى فى يسر إلى أن تصل القافلة الوادعة إلى أرض السمير الأكبر لفرعون مصر **"رنزى بن مرو"** وهنا تبدأ محنة صاحبنا. فهناك كان على القافلة إجتياز طريق ضيق يحده من إحدى جوانبه مصرف مياه ومن الجانب الآخر حقل شعير. ويشاء حظه العاثر وحظنا السعيد أن تقع عينا ناظر العزبة السمير المدعو **"جحوتى بن نخت"** على الموكب لتحرك فيه عرق الطفاسة وفراغة العين فيدبر مكيدة رخيصة ولا يكتفى بذلك بل يوسع صاحبنا ضربا ويستكتر عليه حتى الصياح فيعنفه ويتوعده قائلا: لا تجأر بصراخك أيها الفلاح وإلا كان مصيرك مثوى رب الصمت..."، فيرد عليه صاحبنا الفلاح الفصيح قائلا: "أتضربنى وتسرق متاعى ثم تريد ان تنتزع الشكاية من فمى ؟ .. أنت يارب الصمت رد علي مالى حتى أكف عن ذلك الصياح الذى يرعبك". ولا يجد صاحبنا مفرا ازاء إستنطاع ناظر الخاصة ... لا يجد مفرا من رفع شكايته إلى السمير شخصيا. وتصل أولى المظالم إلى السمير فتأخذه كلماتها بفصاحة حكمتها وصدق بصيرتها فلا يجيب صاحبنا حتي يسمع منها المزيد.



المظلمة الأولى

أيها السمير الكبير ... يا سيدى، يا أعظم العظماء.

يا قائدا على ما كان ومالم يكن.

إنك تهبط إلى بحيرة العدل لتبحر فيه بريح رخاء.

لم يتمزق شراعك ولم يبطئ سفينك ولم ينزل بساريتك أي مكروه.

ولم تتكسر مراسيك أو يجرفك التيار.

ولم تذق أضرار النهر ولم تر وجها عبوسا.

أنت أبو اليتيم وزوج الأرملة وأخو المنبوذة ورب من لا أم له.

....

يا قائد بغير عيب، يا عظيما من الدنايا.

أنت يا مهلك الباطل ومثبت الحق.

أجب الداعى وأنبذ الشر.

إرفع الظلم الذى وقع علي وأنظر كيف حملى بالشقاء.

وأنظر إلى ما بي من ضعف.

المظلمة الثانية

يا أيها السمير الكبير ... يا سيدى، يا أعظم العظماء وأغنى الأغنياء.

....

اماذا عساك تحتاج فى بيتك ؟

إلى ابريق جعة وثلاثة أرغفة ؟

ترى ما الذى أعددته لإرضاء الفقير..؟

إن الانسان ليموت كما يموت اتباعه..

....

انظر لقد ضلت العدالة من تحتك وزحزحت عن موضعها.

الموظفون يقترفون الاثم والاحكام جائرة والقضاة يسرقون.

ومن كان عليه القضاء على الخطيئة يقترف هو الاثم.

....

كن الملجأ وإجعل مرساك آمنا

فإن المنطقة التى تقيم فيها غاصة بالتماسيح.

وجه لسانك للحق ولا تتبع طريق الضلال.

لا تقل زورا وراقب كبار الموظفين ...

إن سلة فاكهة تفسد قضاتك، وإن قول الزور هو غذاؤهم ...

أنت يا أعلم الناس هل تظل جاهلا بأمرى ؟

المظلمة الثالثة

إن رزق الناس منك كأنك الفيضان.

أنت النيل الذى يخضر المروج ويعمر الفلوات.

إخرج اللص وإرحم البائس ولا تكن سيلا على الشاكى

وأنظر إلى اقتراب الأبدية.

....

عاقب من يستحق العقاب ولن يدانيك عندئذ إنسان فى عدالتك.

لا تجب على الخير بالشر ولا تضع شيئا فى موضع سيئ

إن صلاح البلاد باقامة العدل.

ولا تكن خفيفا وأنت رجل له وقاره.

ولا تقل الكذب لأنك الميزان.

لا تسرق وأنت تعمل ضد السارق.

إن الذى يخفى الحق سوف ينكشف يوما.

هل أنت للناس كالصقر يعيش على ضعاف الطير.

المظلمة الرابعة

لقد هلك الخير لقد تجاوزتك الرحمة.

كم يشكو البائس الذى أهلكته.

أيها الظل لا تفعل كالشمس المحرقة.

أيها الملجأ لا تسمح للتماسيح بالاختطاف،

....

تلك هي شكواي الرابعة أترانى منفق فى ذلك كل وقتى ؟

المظلمة الخامسة

إن أملاك الفقير أنفاسه، ومن أخذها منه أفقدته أنفاسه.

لقد عينت لتسمع الشكايات، وتفصل بين الخصوم وتقضى على اللصوص.

لقد وضع الناس ثقتهم فيك فأصبحت معتديا.

لقد أقمت سدا منيعا للفقير تحميه من الغرق فكنت عليه سيلا عارما.

المظلمة السادسة

أقم العدل... أقم الخير وأقض على الشر.

كما يأتى الشبع فيقضى على الجوع،

والكساء فيقضى على العرى،

وكما تصفو السماء بعد ريح عاصف فتدفن كل مقرور،

وكما يطفئ الماء الظمأ،

إن حزنى يؤدى إلى القطيعة وإتهامى يثير النفور.

لا تكن بطيئا هكذا.

إن زارع الشر يروى ارضه بالاثم حتى يحيلها زورا.

المظلمة السابعة

أيها السمير العظيم إنك دفة الأرض كله،

والأرض تجرى بأمرك.

وأنت ند لـ "تحوتى" الذى يحكم بغير هوى.

سيدى كن رحيما إذا دعاك رجل إلى قضية عاجلة.

لا تكن عنيدا فذلك لا يليق بك.

إن قلبى مثقل ... لقد إنتهى كلامى وعرضت بؤسى كله عليك.

فما الذى تريده منى بعد ذلك ؟

المظلمة الثامنة

أيها السمير العظيم،

إن المرء ليسقط السقوط الشنيع بطمعه.

إنك نهاب ولن يكون لك شئ.

إنك لتسرق ولن يكسبك ذلك شيئا.

ماذا تريد فى بيتك وجوفك ملآن.

إن عندك مالك من الأرض والحقول.

والخبز فى بيتك والطعام فى مخازنك.

والكبار يعطونك وانت تاخذ.

هل أنت لص ؟

إن الحق باق وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر.

المظلمة التاسعة

أيها السمير الاعظم،

إن ألسنة الرجال ميزانهم.

إنها الميزان الذى يكشف عن مثالبهم.

عاقب من يستحق العقاب ولن يشك أحد فى استقامتك.

إن الباطل إذا سار ضل.

ومن إغتنى به لن ينجب أولادا ولن يكون له وريث.

ومن أبحر به لن يصل إلى البر ولن تصل سفينته إلى مرسى.

لا تكن متحيزا ولا تصغ إلى قلبك.

لا تحجب وجهك عمن لا تعرف ولا تتعامى عما ترى ولا ترد من سألك.

أنظر لقد شكوت لك فلم تسمعنى.

سأذهب عنك فأشكوك للرب

وتنتهى حكاية صاحبنا الفلاح الفصيح **"خو إن انوب"** نهاية سعيدة فيعاقب الجانى بمصادرة أملاكه ومنحها لفلاحنا الفصيح. تنتهى الحكاية لتبقى مظالمه التسع ببلاغة صدقها مثلا يحتذى ... ونصوصا مقررة على من يرغب في تعلم فن الكتابة في مصرنا القديمة... تبقى لتكون هادية لأسس العدل وأصول العدالة ورسالة للحكام من عموم المصريين.

وتنتهى الحكاية ليبقى أثرها ومغزاها حيا فى القلوب. فبعد آلاف السنين من واقعة فلاحنا **"خو ان انوب"** مع ناظر الخاصة الملكية **"جحوتى بن نخت"**، نرى أحفاد أحفاده يكتبون بشكواهم ويرفعون مظالمهم الى الإمام ... صاحب المقام الرفيع... السيد وتاج الراس ... البطل الشهير ... صاحب

الموكب العظيم... الإمام الشافعى ... قاضى الشريعة ... الحق ... الوكيل المتصرف ... والسيد الملاذ ... يكتبون إليه طالبين منه المدد والعون لإحقاق الحق ورفع الظلم عنهم. فها هى ذى سيدة بسيطة من أهناسيا – بنى سويف – تكتب لقاضيها الإمام: "رضى الله عنك ياإمام يا شافعى أن فلانة إشتكت لك فلان إبن فلانة ... إتهمنا فى الدرة أنا وولادى وكتب فينا بلاغ وشحططنا فى المركز ومن المركز على النيابة وجرسنا وقطع عرضنا فى البلد وإحنا على وش موسم ... فلان وفلانة إشتكو لك ووقعوا فى عرضك" [2-78]. ويرفع أحد بلدياتها شكواه هو الآخر إلى الإمام فيكتب له بلغته البسيطة: "انى زارع فدانين إلا ربع بالناحية بلدنا وأشخاص من الناحية بلدنا بيدعوا أنهم خفر ... إنما هو إجرام ... ياخذوا الخفر حسب طلبهم ومفروض منهم على كل فدان فى خفر القطن كذا وخفر الدره كذا حسب ما برضيه ضميرهم السيئ ... وغير ذلك إنهم بيسرقوا الأرض وياخذوا كفايتهم منها فى الحرام وبعد السرقة يطلبوا الخفر ياخذوا حسب طلبهم وبيدعوا إنهم عائلات كبيرة ومحدش يقدر يعاقبهم ولا يفوت منهم على طرف ... الزراعة أصبحت فوضى عندهم"[2-79].

وهكذا يمضى إنسان مصر على سنة جده **"خو ان نوب"** موجزا حكمته فى أمثال تحكيها الألسن وتحفظها قلوب الأحفاد:

"صاحب الحق له مقام ومقال"

"الحق اللى وراه مطالب مايموتشى"

"صاحب الحق عينه قوية"

"الطلب الهين يضيع الحق البين" [2-80].

ويمضى فى مخاطبة قاضى الشريعة بلغته العفوية البسيطة طالبا منه العدل والإنصاف ويسوق عليه "عموم أهل السلسلة الأقطاب والأنجاب وعموم أولياء الله الصالحين الذين إصطفاهم رب العالمين". يمضى فى ذلك ولا ينسى فى سعيه لرفع الظلم وإحقاق الحق وإزهاق الظلم، لا ينسى طلب العون والمدد من رجال الله وأهل الطريقة فيناديهم فى رسائله إلى قاضى الشريعة الواحد تلو الآخر "المدد يا سيدنا الحسين ... المدد يا صاحبة الشورى يا أم هاشم ... المدد يا أبا العلمين يا رفاعى ... المدد يا أبا الربيعين يا جيلانى ... المدد يا أبا اللسانين يا بدوى ... يا باب الرسول يا باب القبول يا أبا فراج... المدد يا أبا العينين يا دسوقى ... المدد المدد يا كريمة الدارين يا نفيسة العلوم يا مبرقعة بالأنوار ... المدد يا سيدى يا شبل يا منوفى ... المدد المدد يارجال الله" [2-81]. يناديهم وقد قرت فى قلبه كلمات جده البعيد **"خون إن انوب"** بـ **"أن الحق باق وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر"**

وبـ **"أن الباطل إذا سار ضل ومن إغتنى به لن ينجب أولادا ولن يكون له وريث"** وبـ **"أن من أبحر به لن يصل إلى البر ولن تصل سفينته إلى مرسى"**.

دراما الشوارع

مولد ولى ... إحتفال بعيد ... ذكرى واقعة ... سبوع وليد وعديد ... حلقة ذكر وحفلة زار ... أرجوز فى حارة وأدباتى جوال ... عازف ربابة يحكى السيرة ويغنى التغريبة ... مناسبات متفرقة باعد بينها الزمان والمكان فجمعها رباط خفى وصل الماضى بالحاضر وشكل تواصلا يشى بوحدة المضمون.

فهناك ... فى قلب صعيد مصر... وعلى مقربة من مدينة جرجا، جنوب البلينا، وعلى الضفة الغربية لنهر النيل ... تقع "**إبدو**" العرابة المدفونة ... أقدس بقاع مصر القديمة طرا ... وكعبة القصيد من حجيج الأجداد ... إبدو الحرم الذى يحرم فيه على أى إنسان"... أن يقرع الطبول أو يغنى على صوت الجنك والناى" والتى حرم بها صيد الطيور والأسماك. فهناك فى "**بقر**" (قرية أم الجعاب) يقع الضريح المقدس ومقام **أوزير** ... وارث **جب** إله الارض وإبن **نوت** إلهة السماء ... الاله الشهيد الفادى ... المخلص ... سيد الأبدية ... أمير الخلود ... رب الخصب والنماء ... الذى صلى له أجدادنا قائلين:

إن تربة الأرض فوق ذراعيك
وأركانها تستقر عليك
وأيضا عمد السماء الأربعة
فإن تحركت إرتعشت الأرضين
....
أنت أب وأم كل الناس
فهم يعيشون بنفسك
وهم يقتاتون من لحم جسدك
....

وفى هاتور، أبو الذهب المنثور، من كل عام وعندما تكون حبوب الذرة الصفراء قد نضجت، كان يقام هناك فى إبدو "مولد" الإله ويحتفل بقيامته وبعثه من عالم الأموات. ويندمج الطقس والإنسان والأسطورة فى شعائر العبادة لرب العرابة وتقوم الكهنة وجموع الحجيج بتجسيد سيرة الإله الشهيد.

وتبدأ أولى أيام المولد بموكب حافل يجسد أمجاد أوزير الملك الذى:

نشر العدل على كلتا الضفتين

ووضع الابن محل أبيه

وتخلص من أعدائه بقوة وجبروت

فلما رأت الأرض مبلغ اقتداره

منحته السلطة والصولجان

حتى تحيا الأرضان فى بحبوحة وأمان

....

وبات تاجه يضاجع النجوم ويخترق السماء [82-2]

وعلى رأس الموكب نرى إله أسيوط **"وب واوت"** فاتح الدروب والمسالك، وهو على هيئة تمثال مرفوع الهامة له رأس ابن آوى وجسد إنسان، نراه وهو يتقدم مسيرة التمجيد ومعبدا الطريق لرب العرابة وصانعا سبله مستقيمة.

ويظهر سيد الأبدية **أوزير** ... الرب الشهيد ... تمثالا مهيبا على هيئة انسان تلفه الأكفان ... فى يديه شعارات السلطة والسيادة... القدرة والسلطان ... عصا معقوفة وسوط وصولجان ... وعلى رأسه التاج الابيض تزينه ريشتان ...



أوزوريس

يظهر معتليا مركبته المقدسة **نخمت** وهو محمول على الأكتاف وتحف به الكهنة برؤوسهم الحليقة وثيابهم الكتانية ناصعة البياض ... وتتحلق من حوله عذارى المعبد بشعورهن المستعارة وغلالاتهن

الشفافة وهن ينشدن أغنيات الفرح والسرور بمقدم الإله ... ويرقصن فى حبور على نغمات الصلاصل ودقات المزاهر ورنين الصنوج. وتأخذ الجموع الجلالة فيرتج فضاء الحرم بتهليلات الشعب ومردات الحجيج ويبدأ الجميع فى أداء الشعائر المفروضة لموجب التقديس وتلعب دورها فى تجسيد سيرة الإله الشهيد، فيتقمص البعض دور حماة الإله ويتقمص البعض الآخر دور أعدائه الخائنين، ويدور الصراع ويحمى الوطيس وتدور الدائرة ليخرج الإله منصورا ويستأنف المسير إلى معبد إبدو الكبير.

وهناك وراء جدران المعبد ... وفى قدس الأقداس ... تبدأ رحلة الآلام ... فيقام طقس الشهادة ويعاد تمثيل الحدث الرهيب. فعلى يد الشقيق الغادر **"ست"** وبأيدى أتباعه الإثنا والسبعين، يتم إغتيال الإله ويوضع جسده فى تابوت من الخشب يدفعون به فى مياه نهر النيل.

وبينما تحرى الطقوس المحجوبة عن الأبصار تجلس الأختان **"إيزه"** و**"نفتيس"** على عتبات المعبد تشدوان بمرثية حزينة على دقات دفوف تؤجج إيقاع الألم فيها وقائع الماساة. و"تختار لهذا الدور فتاتان ... طاهرتا الجسد ... عذروان ... قد حف شعر جسديهما ... وزين رأساهما بشعر مستعار وتمسك كلتاهما بدف فى يدها وقد كتب على منكبيهما الأولى **" إيزه"** والأخرى **"نفتيس""** [2-83]. ويسرى فى جنبات الوادى صوت الأختين ... يندب من راح ... وينادى من غاب ... نواح جليل ... وعديد خالد ... وحزن مقدس... لم تخمد قرون مضت من جذوته فبقيت حرارته سارية فى مراثي الأحفاد [2-84، 85]:

أبكى عليك وحدك
أبكى على كسمك ومخدمتك
ما حدش كوانى فى الميتين ... زيك
....
أبكى على شانك
والعمر كله ... يا حنون ... كرمالك
....
تبكى عليك العين
وتنادهة الخية يقول نعمين
لولا شبابك ما بكتش عين

شبابه عدم وألقى مثيله فين

....

ياقايلة قولى على الخايل

عود القنا لا أعوج ولا مايل

ياقايلة قولى عليه قولى رقبته طويلة ودراعه شمولى

....

يا سيسبان مزروع فى جنينة

طولك مليح وقوايمك زينة

....

فايته على الشباب شبهته

الطول طوله والشميس وشه

....

يا ماسك الخزران فى يمينك

ماتقوم فى البيت عايزينك

يا ماسك الخزران في شمالك

ما تقوم فى البيت عاوزلك

....

راقد يا زين فى اللحد بعباية

جيت سياق تعالى معايا

....

قاعد يازين فى الحر والقيلة

ما تقوم تعالى بيتنا ضليلة

قاعد يا زين فى الحر والحموة

ما تقوم تعالى بيتنا أهوى



لوحة النائحات ... من الفن المصرى القديم

وفي ظلمة الليل تمضى جموع الحجيج الى شاطئ النهر بصحبة الأختين ومعهما أبناهما **"حور"** و**"أنوبيس"**، فى رحلة البحث عن تابوت الفقيد. ويأتى **"تحوتى"**، إله الحكمة، بالبشارة للجموع فلقد عثروا على التابوت. وبنما يقوم الكهنة بفتحه وملئه بطمي النيل تعلو أصوات الجموع بتهليلة الفرح **"هاقد وجدنا جسد الإله"**. وتبدأ طقوس البعث وشعائر القيامة بينما تترنم الجموع، فى إيقاع متصاعد بطقسة القيامة:

إنهض ... قم

إنهض ... قم

إنهض ... قم

وعندما تحين اللحظة المرتقبة... ويقوم الشهيد حيا من جديد ... تفيض المشاعر وتلتهب جذوة الفرح في نفوس المؤمنين ... وترتج جنبات العرابة بصوت الشعب وهو يرتل قداس إنتصار الحياة [2-86]:

الفرح والمجد لك
من كل الآلهة الأبرار
هاهو وريثك حور قد جاء يحييك
ولقد أشرقت بالفرحة وجوه كل الآلهة
فلتحيا يا سيدنا برغم قلبك المكدود
إنهض فرح القلب
فأنت تنتصر يا سيدنا
أنت تنتصر
وعدوك فى إندحار

وفى الصباح يخرج الإله الحي ... رب العرابة، القائم من الموت، يخرج من معبده على مركبه نخمت التى يعلوها شعاره بوصفه سيد الغرب (الآخرة) والحاكم علي عالم الأموات. وتتجه الجموع في موكب مهيب لتشيع الإله إلى **"بقر"**، مقره الأخير حيث يعتلى عرش الآخرة. وقبل أن يصل الموكب إلى غايته، تدور على شاطئ النهر موقعة هائلة بين الإبن، الوفى لأبيه، **"حور"** والعم الغادر **"ست"** الذى يختفى في صورة فرس النهر. وينتصر حور فتتأكد العدالة وتتكرس القيامة وتسطع **"ماعت"**. ويواصل الموكب مسيرته وسط تهليلات الفرح وتكبيرات الانتصار.

ويختتم الإحتفال بمولد الشهيد ... وتنصرف جموع الحجيج بعد أن تكون أدت الفريضة وعاشت السيرة ... وتمضى بعد ان عانت آلام الغدر وعذابات الشهادة ... وأحست بأفراح البعث وتجليات القيامة ... فتوحدت مع سيد الأبدية وضمنت لنفسها بعد الموت حياة وبعثا وخلودا. هكذا آمنت الجموع وهكذا احتفل المصريون بالههم الحي الذى لا يموت ... الههم الذي منحهم بعد الموت حق الحياة ... فتساوى الفرعون بأدنى رعاياه ... توحدوا معه فحل فيهم ورددوا معا:

إنى أوزير
وانى أعيش كحبة حنطة
وأنمو كحبة حنطة
إنى شعير" [من متون توابيت الدولة الوسطى]

وآمنت أحفادهم بـ **"إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهي تبقى وحدها ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير"** [يوحنا 12-24] وبـ **"أن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت"** [الأنعام 6].

وتنطفئ قناديل المولد ويمضى من عمر الزمان ثلاثون قرنا او يزيد فلا تنطفئ جذوة الدراما في نفوس المصريين .... وتتعدد التجليات ... ففى بداية شهر توت من كل عام، كان سكان القاهرة المملوكية النصارى منهم والمسلمون يخرجون عن بكرة أبيهم للاحتفال برأس السنة القبطية بيوم النيروز فـ "كان يجتمع فى ذلك السواد الأعظم من أسافل العوام وكان يركب منهم شخص خليع ... عابر العين... قوى الطباع ... فيركب على حمار وهو عريان وعلى رأسه طرطور فيسمونه أمير النيروز. فيتوجه إلى بيوت أكابر الدولة من أعيان المباشرين وغيرها من مشاهير الناس، فيقف أمير النيروز على بابه ومعه السواد الأعظم من أوباش العامة، فيكتب على باب تلك الدار الوصلات بالحمال الثقيل من المال ... وكان طائفة منهم يقفون في الطرقات ويتراشقون بالماء المتنجس أو بالخمر ويتراجمون بعمائهم في الأسواق والأزقة. وكانوا يتجاهرون في ذلك اليوم بشرب الخمور، وكثرة الفسوق فى أماكن المتفرجات، حتى يخرجوا فى ذلك عن الحد ... وكان هذا الأمر ماشيا بمصر على القاعدة القديمة من الدول الماضية، فى كل سنة فى يوم النيروز، ولا ينكر ذلك بين الناس" [2-87]. ويكمل المقريزى حديث إبن أياس فيقول: "إن غلط مستور وخرج من بيته، لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإما يفدى نفسه وإما أن يفتضح" [2-88]. وهكذا جسدت شعائر الإحتفال بيوم النيروز رؤية عموم الناس لأبهة السلطنة ... وعراك المماليك ... ومظالم الجباة.

وعلى إيقاعات ذكر الطريقة البيومية حول صارى خيمة المولد النبوى، يدور أهل الطريقة وقد "حنوا أولا رؤسهم وشبكوا أيديهم أمام صدورهم فى الوقت نفسه عند كل صيحة، ثم رفعوا رؤوسهم وصفقوا بأيديهم أمام وجوههم ... واستمر الذكر نصف ساعة على الوصف المذكور، وبعد ذلك كون الدراويش فرقا من خمسة أو ستة أو اكثر معا ولكن على شكل حلقة كبيرة وكان أفراد تلك الفرق متماسكين ... كل واحد يضع ذراعه اليسرى خلف ظهر جاره يسارا ويده على كتفه الاخير" [2-89]. وتتداخل الصور... وتتراكب الرؤى ... ويشف الزمان ... فاذا بـ **"برعو"** (البيت الكبير وتعنى فرعون مصر) مصر يشارك فى إقامة عمود **"دجد"** [2-90] رمزا لقيامة أوزير ... بينما تغنى الأميرات على دقات الكفوف ... ويدور حوله الكهنة راقصين على دقات الدفوف....

وتختلط الأصوات ... وتتردد فى جنبات الزمن الأصداء ... وتبقى طقسة القيامة المجيدة فى الأسماع:

إنـهض ... قم

الله ... حـي

إنـهض ... قم

الله ... حـي

إنـهض ... قم

الله ... حـي

هوامش الفصل الثانى

[2-1] حسين فوزى، **"سندباد مصرى"**، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1969 ، ص. 291.

[2-2] ثينة مدينة من مدن مصر القديمة كانت تقع بالقرب من البلينا (المنيا)، إليها ينتسب الملك مينا مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

[2-3] عحا لفظة من اللغة المصرية تعنى المكافح او المنتصر. محمد بيومى مهران، "مصر" الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية، 1988، ص. 15.

[2-4] رفاعة رافع الطهطاوى، **"مناهج الالباب العصرية فى مباهج الاداب العصرية"**

[2-5] محمد بيومي مهران، **"الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول: الآداب والعلوم"**، دار المعرفة، الجامعية الإسكندرية، 1989، ص. 297.

[2-6] البلاد الواقعة حول مضيق باب المندب وتشمل جنوب بلاد العرب والصومال.

[2-7] شمال فلسطين.

[2-8] رفاعة رافع الطهطاوى سبق ذكره.

[2-9] منسى يوحنا، **"تاريخ الكنيسة القبطية"**، مكتبة المحبة، 1983، ص. 41.

[2-10] وليم سليمان قلادة، **"المسيحية والإسلام على ارض مصر"**، كتاب الحرية، العدد 5 فبراير، 1986، ص. 91.

[2-11] وليم سليمان قلادة، سبق ذكره، ص. 133.

[2-12] المقريزى، **"المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار"**، الجزء الأول، دار صادر-بيروت، ص. 173.

[2-13] برابى تعنى المعابد ومفردها بربا وهى كلمة مصرية قديمة "بر–بت"، أي بيت السماء ثم صارت فى القبطية بربى ومنها إنتقلت الى العربية.

[2-14] عبد المجيد عابدين، "لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده"، مطبعة الشبكشى–القاهرة، 1964، ص. 89.

[2-15] جيمس هنرى بريستد، **"فجر الضمير"**، مكتبة مصر، 1980، ص. 35.

[2-16] إبن أياس، **"بدائع الزهور فى وقائع الدهور"** ، الجزء الأول – القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص. 199.

[2-17] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 161– 162.

[2-18] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 168.

[2-19] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 167.

[2-20] سيدة إسماعيل كاشف، **"مصر فى عصر الإخشيديين"**، تاريخ المصريين، 29، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989، ص. 17.

[2-21] سيدة إسماعيل كاشف، سبق ذكره، ص. 18.

[2-22] سيدة إسماعيل كاشف، سبق ذكره، ص. 23.

[2-23] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 191.

[2-24] المقريزى، سبق ذكره، ص. 363.

[2-25] عبد المنعم سلطان، **"المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى"**، دار المعارف، 1982، ص. 23.

[2-26] عبد المنعم ماجد، **"ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر"**، دار المعارف، 1986، ص. 293.

[2-27] عبد المنعم ماجد، سبق ذكره، ص. 115–116.

[2-28] أحمد صادق سعد، **"تاريخ مصر الإجتماعى والإقتصادى"**، دار بن خلدون–بيروت، 1979، ص. 302.

[2-29] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الثانى، ص. 284.

[2-30] ناصر خسرو، **"سفرنامه"**، ص. 64.

[2-31] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الخامس، ص. 206 –207.
[2-32] رحلة ناصر خسرو إلى مصر فى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر.
[2-33] رحلة ابن جبير الى مصر فى عصر الدولة الأيوبية.
[2-34] صبحى وحيدة، **"فى أصول المسالة المصرية"**، مكتبة مدبولى– القاهرة، ص. 115.
[2-35] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الثانى، ص. 95.
[2-36] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الأول، القسم الأول، ص. 543.
[2-37] إبن أياس ، سبق ذكره، الجزء الخامس، ص 136–176.
[2-38] الجبرتى، **"المختار من تاريخ الجبرتى"**، كتاب الشعب، 1958، ص. 97.
[2-39] لويس عوض، "تاريخ الفكر المصرى الحديث: الخليفة التاريخية"، الطبعة الرابعة، مكتبة مدبولى– القاهرة، 1987، ص. 41.
[2-40] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 80.
[2-41] لويس عوض، سبق ذكره، ص. 42.
[2-42] ليلى عبد اللطيف، **"الصعيد فى عهد شيخ العرب همام"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص. 171.
[2-43] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 86.
[2-44] لويس عوض، سبق ذكره، ص. 27.
[2-45] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 424.
[2-46] عبد الرحمن زكى، **"التاريخ الحربي لعصر محمد على الكبير"**، دار المعارف، 1950، ص، 163–164.
[2-47] عبد الرحمن زكى، سبق ذكره، ص. 169.
[2-48] طارق البشرى، **"المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص. 31.
[2-49] لويس عوض، سبق ذكره، ص. 157.
[2-50] لويس عوض، سبق ذكره، ص. 162.
[2-51] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 692.
[2-52] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 407.
[2-53] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 708.
[2-54] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 628– 636.
[2-55] عبد الرحمن زكى، سبق ذكره، ص. 19.
[2-56] عبد الرحمن الرافعى، **"الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى"**، الطبعة الرابعة، دار المعارف، 1983، ص. 92.
[2-57] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 211.
[2-58] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 71.
[2-59] عبد العزيز صالح، **"التربية والتعليم فى مصر القديم"**، الدار القومية للطباعة والنشر– القاهرة، 1966، ص. 231.
[2-60] إسماعيل القبانى، **"سياسة التعليم فى مصر"**، لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة، 1944، ص. 23.
[2-61] عبد العزيز صالح، سبق ذكره، ص. 340.
[2-62] المقريزى، **"كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك"**، الجزء الأول–القسم الثالث، مطبعة دار الكتب، 1973، ص. 849.
[2-63] سيد عويس، **"حديث عن الثقافة المصرية"**، مكتبة الأنجلو–القاهرة، 1970، ص. 61.
[2-64] سيد عويس، **"الإبداع الثقافى على الطريقة المصرية"**، دار الطباعة الحديثة–القاهرة، 1981، ص. 57–59.

[2-65] رندل كلارك، **"الرمز والأسطورة فى مصر القديمة"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 103-104 .
[2- 66] جيمس هنرى بريستد، سبق ذكره، ص. 116.
[2- 67] لويس بقطر، **"من الأدب الأوزيرى"** ،مجلة الفكر، العدد 11، يناير 1988، ص. 139–155.
[2- 68] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الرابع–القسم الثالث، ص. 1059.
[2- 69] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 202.
[2- 70] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الثالث–القسم الثانى، ص. 704.
[2-71] آمال الروبى، **"مصر فى عهد الرومان"**، الطبعة الثانية، دار البيان العربى– جدة، 1984، ص. 75.
[2-72] أبو شاكر، **"تاريخ إبن الراهب"**، بيروت، 1903، ص. 82.
[2-73] شوقى ضيف، **"الفكاهة فى مصر"**، كتاب الهلال، 1958.
[2-74] آمال الروبى، سبق ذكره، ص. 95.
[2-75] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الأول-القسم الأول، ص. 208.
[2-76] أحمد عبد الحميد يوسف، "القروى الفصيح"، جريدة الأهرام، القاهرة، 1978، ص. 1997.
[2-77] سيد عويس، سبق ذكره، ص. 152.
[2-78] أحمد تيمور، **"الأمثال الشعبية"**، الطبعة الرابعة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1986.
[2-79] سيد عويس، سبق ذكره، ص. 100.
[2-80] رندل كلارك، سبق ذكره، ص. 101.
[2-81] أتين دريتون، **"المسرح المصرى القديم"**، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 14.
[2-82] جاستون ماسبيرو، "مختارات الأغانى والعديد مصر العليا وأسيوط"، مصرية – نشرة غير دورية، أكتوبر 1986.
[2-83] عبد الحليم حنفى، **"المراثى الشعبية"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص. 56–61.
[2-84] لويس بقطر، "العناصر الدرامية فى مهرجان أوزوريس فى شهر كهيك" ، مجلة فكر، العدد 4، 1985، ص. 175- 191.
[2-85] المقريزى، **"المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار"**، الجزء الأول، ص. 493.
[2-86] إدوارد لين، **"المصريون المحدثون – شمائلهم وعاداتهم"**، الطبعة الثانية، 1975، ص. 383.
[2-87] لويس بقطر ،سبق ذكره.

الفصل الثالث

القومية المصرية .. الإشراقات

ولا كل من كان لها خارطة قالت أنا بلد ......

الرك على المدينة والعمران

صلاح جاهين



ماعت .. فجر الضمير

في البدء كانت الكلمة ... والكلمة كانت **"ماعت"** ... وإنغرست الكلمة فى وجدان مصر فجرا للضمير ... **ماعت** .. بشارة فى كلمة .. حق ... صدق وعدالة .. صواب وميزان حساب.

ماعت .. كلمة الكلم ... وبلاغة القيم ... تعويذة خصب ورقة نماء ... تاقت إليها، دوما، النفس المصرية لتتجدد الروح بها فينهمر العطاء.



الإلهة المصرية الممثلة لـ "ماعت"

يقول الحكيم المصرى القديم: "إن ماعت عظيمة وتصرفها باق فلم تخذل منذ زمن بارئها".

ويسأل عمرو بن العاص غازى مصر وأول العرب، يسأل بنيامين بابا كنيسة الاسكندرية وبطرك الأقباط، "أن يخبره بما يكون فيه عمارة أراضى مصر" فيجيبه الحبر الجليل قائلا: "لا يؤخذ خراجها إلا من غلالها، ويحجر على عمالها من المطل، ويمنعهم من أخذ الرشاء، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا".

ويزور مصرنا المأمون الخليفة ... ويرقص بسيفه على جماجم الرعية ... يسبى النساء ويقتل الذرية ... ويسرح فى البلاد يتفقد النتيجة. وعند قرية طاء النمل – غريبة – تدعوه جدتنا العجوز مارية القبطية، وتقوم بالضيافة وتكرم الوفادة ... وفي نهاية الإقامة تمنحه الهدية ... صحاف مملوءة بخالص الذهب ... يبهت أمير المؤمنين ... يأخذه العجب. ويسأل الخليفة الحكمة القديمة عن مصدر العطية. فتجيبه خلاصة العصور: "من هذه" وتشير إلى أرضنا المعطاءه الكريمة وتنظر إليه عين

حور ... تستطرد ... تقول: "ومن عدلك يا خليفة". وتبرق في عينيها بقية العبارة يا راعي الميزان ...!.

يخاطب جدنا القريب ... إبن هرية رزنة –شرقية- الاميرآلاي الفلاح عرابى المصرى، يخاطب خسرو باشا الشركسى قائلا: "وما بى من شراسة ولكنى جبلت على حب العدل والإنصاف وبغض الظلم والإجحاف". وكان كلماته رجع صدى جدنا البعيد الفلاح الفصيح **"خو إن انوب"** الذى هو من وادى النطرون "إن اقامة ماعات هي أنفاس النفوس".

ينصح الوزير **"بتاح حتب"** يقول: "إن كنت حاكما فكن عطوفا ... متأنيا عندما تصغى إلى شكوى مظلوم ... ولا تجعله يتردد فى أن يفضى إليك بدخيلة نفسه ... بل كن به رفيقا ... ولحاجته قاضيا ... ولظلمه مزيلا رافعا". ويخاطب زعماء الشعب المصرى محمد على قائلين: "وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير". ويعلق شيخنا الجبرتى على حكم محمد على بعد أن إستقر على كرسى الولاية، يعلق بكلماته المبصرة البصيرة قائلا: "لو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة ... لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه". فيجيبه من وراء السنين صوت حاكم أحد مقاطعات مصرنا القديمة وهو يقول: "لقد أعطيت خبزا لكل الجائعين ... وكسوت كل من كان عريان ... ولم أظلم احدا ... ولقد كنت محسنا لأهل ضيعتى ... ولم أنطق كذبا".

ويستطرد جدنا أخنوم الحديث: "إن العدل عندما يكون قائما يكون حقا عدل، لأن ماعت أبدية ... ولا تضع شيئا فى موضع سيئ ... إن صلاح البلاد فى إقامة ماعات". ويعود شيخنا الجبرتى، متأملا فى الأحوال متدبرا الأمور، ليحدثنا عن محاكمة سليمان الحلبى قاتل سارى عسكر الفرنسيس الجنرال كليبر فيقول: "وقد كنت أعرضت عن ذكرها (وثائق المحاكمة) لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه إلى الإطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة (المحاكمة)، ولما فيها من الإعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين. وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم أفاقى أهوج وغدره. وقبضوا عليه وقرروه، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنه بمجرد الإقرار ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ... بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والإستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة. ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين، ثم نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من فعل أوباش العساكر

الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم يجاهدون وقتلهم الأنفس، وتجاريهم علي هدم النفس الانسانية بمجرد شهوتهم الحيوانية" [3-1].

إيش تاخذ من تفليسى

وما أن حل الخامس عشر من يوليو لسنة 1795م (27 ذى الحجة 1209هـ) حتى شهدت القاهرة واحدا من أيامها المعدودة .. يوما كانت وقائعه مثلا وكانت أحداثه تجسيد عن شوق أمة لـ "ماعات" .. شوق لم تخمد من جذوته ما لقيته عبر تاريخها الطويل، فبقى متأججا فى ضميرها منذ أن إبتدعت القيمة وأوجدت المعنى.

وكان بحق يوما مشهودا ففيه "... إنجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون: حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية" [3-2]. وقبلها كان الحوار بين المشايخ، ممثلو الأمة، وبين أيوب بك الدفتردار مندوب إبراهيم بك أمير أمراء المماليك المصرلية. حوار إبتدأوه بقولهم له: "نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى إبتدعتموها وأحدثتموها". فيرد عليهم قائلا: "لا يمكن الإجابة على هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات". فيردون عليه: "هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك ...؟... والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ". ويأتى الرد ليوجز مفهوم العدل (ماعت) فى عرف الأمة ... العدل فى ثنائيته الواحدة التى لا إنفصال فيها ولا تجزئة ... قيمة معنوية يفرضها شرع السماء ... وقيمة عملية توفى بحاجة البسطاء. وينصرف أيوب بك حاملا رسالة العلماء لأميره وينصرف العلماء ليعتصموا مع "أهل الأطراف"، من العامة، بالجامع الأزهر، يعتصموا معهم فى انتظار رد الأمير على رسالتهم. ولا يطول الإنتظار فيدعوا الأمراء المشايخ للقائهم فى بيت الأمير إبراهيم بك وهناك يعلن الأمراء عن توبتهم وعن رجوعهم عما أحدثوه من مظالم. ويكتب قاضى قضاة مصر حجة عليهم ينصاعون فيها لما شرطه العلماء عليهم ويلتزمون فيها بـ "... منع التفاريد على البلاد، والرعايا والفقراء، ومنع ترك الكشاف الجايرة فى بلاد الله التي خربوها ودمروها ... وأن ترفع المكوس الجارية فى البنادر والموارد وما جعل علي المأكل والمشارب، وإزالة جميع الحوادث والمظالم من جميع الأقطار المصرية ... فأجابوا حضرة الأمراء الكرام المعين أسماؤهم بأعاليه، بالسمع والطاعة وعدم مخالفة الجماعة وأن يبطلوا هذه المظالم الحادثة التى أضرت بالاسلام والمسلمين، وأبادت أموال الفقراء والمساكين، وحصل فيها الضعف والجور المبين، وإمتثلوا جميعا لما طلب منهم وأشير لهم عليه وعاهدوا الله سبحانه وتعالى على ألا يعودوا الى تلك الأفعال وكل ما خالف ذلك أو توقف فى دفع ما يترتب عليه أو سعى فى إبطال شئ من ذلك، فيكون على سادتنا أرباب السجاجيد وعلماء الإسلام والأمراء قهره وإستخلاص كامل ما هو مطلوب منه لأربابه كاين من كان" [3-2].

وتمضى على الحجة ... حجة حقوق إنسان مصر البسيط ... تمضى عليها تسع سنين حافلة بالأحداث الجسام تغزو فيها الجيوش الفرنسية الديار المصرية، فتثور القاهرة عليهم مرتين ويخرج الفرنسيون ليعود العثمانيون وينسى الأمراء المماليك تعهداتهم السابقة بالحق عن الظلم والجور فإذا بهم يشرعون فى فرض فردة (ضريبة) جديدة على الأملاك والعقارات، تبلغ أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر ويدفع نصفها الآخر صاحب العقار و "سرح كتاب الفردة والمهندسين ومع كل جماعة شخص من الأجناد وطافوا بالأخطاط يكتبون قوائم الأملاك ويصعقون الأجر. فنزل بالناس ما لا يوصف من الكدر مع ما هم فيه من الغلاء ووقف الحال وذلك خلاف ما قرروه على الأرياف". ويختل ميزان العدل وتهتز "ريشة ماعات" فتشهد القاهرة إنتفاضة جديدة فى السابع من مارس لسنة 1804 م ففى ذلك اليوم "ضج الفقراء والعامة والنساء، وخرجوا طوائف يصرخون ويقولون كلاما على الأمراء مثل قولهم: "إيش تاخذ من تفليسى يابرديسى"، وصبغت النساء أيديهن بالنيلة وغير ذلك فإقتدى بهن خلافهن، وخرجوا ومعهم طبول وبيارق وأغلقوا الدكاكين. وحضر الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر وذهبوا إلى المشايخ فركبوا معهم إلى الأمراء ورجعوا ينادون بإبطالها". وكان يوما آخر من أيام القاهرة المشهودة إرتجت فيه جنباتها بصوت إحتجاج عوامها منغما ... مرتلا فى إيقاع متصاعد رهيب أوقع الرعب فى قلوب عسكر السلطان فداخلهم الخوف وصاروا يقولون لهم: "نحن معكم سوا ... سوا ... أنتم رعية ونحن عسكر ... ولم نرض بهذه الفرده وعلوفاتنا على الميرى، ليست عليكم ...أنتم ناس فقراء" [3-4].

ولم تكن أحداث هذين اليومين ... يوم أخذ الحجة ... ويوم خروج الأمة محتجة ... لم يكونا إستثناء فى حياتها ولا كانا نمطا غير مألوف ولكنهما كانا مثالا حيا لنمط مصرى تواتر وقوعه طوال عمرها المديد ... نمطا جسد أسلوب الأمة في الحفاظ على القيمة وعلى إستواء الميزان. ولم يكن هذا الحس المرهف للعدل بمفهومه الشامل والكامل متمثلا فى "ماعت" لم يكن هذ الحس مقصورا على عوام الأمة ولا كان رد فعل لحظي لظلم طارئ أو لشدة نازلة. ولكنه كان قيمة أصيلة إبتدعتها الأمة منذ أن وجدت ... قيمة إنغرست فى صلب البنيان فتجاوزت الشخوص وتخطت المكان وعبرت الزمان وصارت علامة على طبيعة المصريين حكاما كانوا أو محكومين. فلم يكن "فرعون" مصر، الذى جعلوا من لقبه إفتراء رمزا للظلم وعلما على الطغيان، لم يكن إلا "**بر– عو**" أو "البيت الكبير" ... بيت الأمة ...فهذا هو معنى اللقب ومنه تتداعى المعانى وتستشف الدلالات ... إنه بر–عو مصر المسئول أمام الآلهة الحساب عن إقامة "**ماعات**" على الأرض ونشرها فى العالمين. وتبرئة ساحته أمامهم مرهونة بما فعله من أجل تحقيقها. وها هي ذى متون الأهرام تحمل لنا إلتماسا بتبرئة الملك

ببيى الأول (الأسرة السادسة 2420–2280 ق.م) بعد وفاته ومثوله في قاعة العدل امام الالهة الاله رع:

لاتوجد سيئة إقترفها الملك ببيى

وهذه الكلمة ذات وزن فى نظرك يا رع

...

أنت يا من تعبر بالبرئ الذى لا سفينة له

إن الملك مرى رع (ببيى الأول) عادل أمام الأرض والسماء

...

أنت يا نجم الصباح إجعل ببيى هذا يجلس لأنه برئ

أما بالنسبة لحفيده الملك ببيى الثانى فإن "السماء فى سرور، والأرض فى حبور، حينما سمعا أن الملك نفركا رع (ببيى الثانى) قد أقام العدل مكان الباطل والذين يجلسون مع الملك فى قاعة العدل مرتاحين للقول الحق الذى خرج من فمه" [3-5].

ولم تكن وظيفة الملك إلا واحدة من وظائف نظام محكم التنظيم لحكم الأمة ولإدارة شئونها ... نظام محكوم بـ "ماعات" ... نظام يلقنه الرئيس للمرؤوس فيكون تنفيذه هو معيار النجاح والفلاح. فها هو ذا مشهد تقليد الوزارة وهو مشهد طال تكراره فى مصر الفراعين: وإجتمع أعضاء المجلس فى قاعة مجلس الفرعون ... له الحياة والفلاح والعافية، قد أمر جلالته بإحضار المرشح لمنصب الوزير الأعظم وقال له جلالته:

- **تبصر فى وظيفة الوزير العظم وكن يقظا لمهامها كلها ... أنظر إنها الركن الركين لكل البلاد**
- **وإعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق، بل إنها مرة ... فالوزير الأعظم هو النحاس الذى يحيط بذهب بيت سيده**
- **وإعلم أنها لا تعنى إظهار الاحترام لأشخاص الأمراء والمستشارين ... وليس الغرض منها أن تتخذ نفسك عبيدا من الشعب**
- **وإعلم أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أي بقعة من البلاد فعليك أن تطمئن إلى ان كل شئ قد تم حسب العرف الجارى فتعطي كل ذى حق حقه**
- **وإعلم أن الوزير يحتل مكانة بارزة وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله وأن كل ما فعله لا يبقى مجهولا إلى الأبد**

- **ولا تنس أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يعد طغيانا على الإله، وعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه والمقرب من الملك كالبعيد عنه**
- **وإعلم أن الوزير الذى سيعمل بذلك سيظل فى منصبه**
- **ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل إغضب على من يجب الغضب عليه، وإجعل نفسك مهيبا ودع الناس يهابونك. والوزير لا يكون وزيرا إلا اذا هابه الناس وإعلم أن هيبة الوزير لاتأتى إلا من إقامة العدل**
- **وإعلم أنك ستصل إلى تحقيق الغرض من منصبك إذا جعلت العدل رائدك فى عملك**
- **أنظر إن الناس ينتظرون العدل فى كل تصرفات الوزير ... وهي سنة العدل منذ أيام حكم الإله على الأرض**
- **إنتبه دع الرجل الذى يؤدى وظيفته يعمل حسبما يؤمر به وإعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسبما يقال له، ولا تتوان أبدا فى اقامة العدل**
- **وإعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف**
- **إنتبه إلى القانون الملقى على عاتقك تنفيذه [3-6].**

وتمضى آلاف السنين على كلمة الفرعون لوزيره، الكلمة التى لقنه فيها "النظام الذى ألقى على كاهل الوزير الأعظم" ... تمضى ألاف السنين وتتغير اللغة ليبقى المضمون ... يبقى حيا فى ضمير الأمة تجسده لنا كلمات القاضى المصري ابراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الوزير فخر الدين (المتوفى سنة 693 هـ-1293 م) صاحب ديوان الإنشاء ... كلمات كتاب تقليد الخليفة المستنصر بالله (أول الخلفاء العباسيين بالقاهرة بعد سقوطها فى بغداد) إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس ... وتأتى الكلمات لتشى بتواصل القيمة وببقاء المضمون حيا فى الضمير: "فلاحظ أمور قد أصبحت لها حاملا، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا، ... وأبسط يدك بالإحسان والعدل فقد أمر الله بالعدل وحث على الإحسان. وكرر ذكره فى مواضع من القرآن وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما، ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام وأصحاب رأى من اصحاب السيوف والأقلام، فإذا إستعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيبا، وإجعل عليه فى تصرفاته رقيبا، وسل عن أحواله، ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا. وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق، وألا يعاملوا احدا على الإحسان والإساءة ولا بما يستحق. وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا وأن يوسعوهم برا وإحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم إذا

إستحل الزمان لهم حرمانا ... ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيئ السنين وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن، وأن يشترى بأبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن. ومهما جبى منها من الأموال فانما هى باقية فى الذمم حاصلة وأجياد الخزائن وإن أضحت بها خالية" [3-7].

ومن الماضى السحيق تحمل لنا نقوش التوابيت صوت "إله الجميع"... تحمل لنا رسالته عن العدل والمساوة وحقوق الانسان [3-8]. يقول إله الجميع فى حضرة أولئك الذين هدأوا من ضوضاء رحلة القصر:

صلوا ...
كونوا موفقين في هدوء
أردد عليكم أربع وثائق طيبة
قدمها قلبى ... وذلك لقمع الشر
لقد خلقت فى البدء أربعة أشياء عظيمة
خلقت الرياح الأربعة التى يستطيع أن يستنشقها كل إنسان مثله فى ذلك مثل زميله الذى يعيش زمانه
.... **وهذا هو العمل الاول**
خلقت الفيضان ليصبح للرجل البسيط حق فيه مثل الرجل العظيم
.... **وهذا هو العمل الثانى**
خلقت كل رجل مثل زميله سواء بسواء ولم أقرر أن يفعلوا شرا ولكن قلوبهم هي التى نقضت ما قلت
.... **وهذا هو العمل الثالث**
وجعلت قلوبهم تفكر فى الغرب (الآخرة)
.... **وهذا هو العمل الرابع**

ولهم فى الكلاب شفاعة

لم أطرد قطيعا من مراعيه

لم أنصب الأفخاخ لطيور الآلهة

ولم ألتقط الأسماك بطعم من لحومها

هكذا رتل الأمير **"آنى"**، المتوفى من ألاف السنين، يوم الحساب أمام الإثنى والأربعين ماعات. وهكذا بدأ الأمير **"آنى"** فى تقديم كشف الحساب عما فعله فى دنياه ... الأمير يلتمس البراءة ... يرنو للخلاص ويرجو أن يرجح قلبه كفة الميزان.



عملية وزن قلب المتوفى بواسطة ريشة العدل (ماعت)

إنى لم أقتل ولم أرتكب أذى

هلا يا من يطلق اللهب ... يا من أتيت من "حت – كا – بتاح"

إنى لم اسبب ألما

هلا يا من أنت رأس العظماء ... يا من أتيت من " عممت"

إنى لم أسبب الرعب لانسان

هلا يا من رتبت الحديث ... يا من أتيت من "أوناسيد"

إنى لم أشعل نيران عراك

هلا "نفر – تم" ... يا من أتيت من "حت – كا – بتاح"

إنى لم أسبب ضررا أو علة

وتمضى على مثول **"آنى"** بين يدي آلهة الحساب فى قاعة "ماعات المزدوجة" ثلاثة آلاف من السنين، ونرى أحفاده مع أبائهم في سوق الدجاجين، فى قلب قاهرة المعز، نراهم وهم يشترون العصافير الملونة ويطلقونها حرة لتغرد فى الفضاء. وكيف لا يفعلون ذلك وهم يعتقدون أنها تسبح بحمد الله وتشكر فضله. وبينما كان أحفاد أحفاد الأمير المصرى منشغلين بتحرير النفوس، كان الأمراء الشراكسة منهمكين فى هدمها. ففى عصر يوم الإثنين الثانى عشر من محرم سنة 693 هـ / 1293 م خرج السلطان الأشرف صلاح الدين خليل من القاهرة قاصدا صيد الطيور فى برارى البحيرة. وبينما كان السلطان يطارد الطيور وحيدا حث المتآمرون على حياته، وعلى رأسهم الأميران بيدرا المنصورى وحسام الدين لاجين، خيولهم حتى وصلوا إلى السلطان وهو وحده فابتدأ بيدرا بالسيف وضربه حتى أبان يده، ثم ضربه ثانيا حتى هد كتفه. فتقدم الأمير لاجين إليه وقال له: "يا بيدرا إن من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته". وضرب السلطان على كتفه حله فسقط على الأرض، فجاءه بهادر رأس نوبة وأدخل السيف فى دبره وإتكا عليه إلى أن أخرجه من حلقه وتناوب الأمراء ضربه بالسيوف..."[3-9]. وإنصرفوا تاركين الجثة ملقاة عارية فى الفلاة حتى جاء بعد يومين الأمير عز الدين أيدمر فحملها إلى مثواها الأخير.

ولم تكد تمضى الواقعة الدموية خمس سنين، حتى تدور الدائرة على أحد المتآمرين، وهو الأمير حسام الدين لاجين، وكان قد تسلطن على الديار المصرية. وما إن جلس على دست السلطنة حتى هاجت غريزة هدم النفوس فى قلوب الأمراء. وفى هذه المرة كان الأمير كرجى هو الرأس المدبر. ففى مساء يوم الخميس العاشر من ربيع الاخر سنة 698 هـ / 1298 م "قال كرجى للسلطان: "ما يصلى مولانا السلطان العشاء؟" فقال: "نعم: وقام يريد الصلاة فأخذ النمجاة (سيف قصير) من تحت الفوطة، وعند ذلك جرد كرجى سيفه وضرب السلطان علي كتفه. فالتفت السلطان يريد النمجاة فلم يجدها فقبض على كرجى وألقاه إلى الأرض. فضرب نوغاي رجل السلطان فقطع رجله. وإنقلب السلطان على ظهره فأخذته السيوف من كل جانب حتي صار كوم لحم" [3-10].

ويبدو أن شهوة القتل وحب سفك الدماء قد تفاقمتا فى نفوس الأمراء حتى طالت الحيوانات... ! ... ففى أحد أيام الثلاثاء من سنة 1518 م (العاشر من ربيع الاخر سنة 924 هـ). وكانت مصر سقطت فى قبضة العثمللى حدث "أن ملك الأمراء خاير بك (وقد أطلق المصريون عليه إسم خاين بك لخيانته السلطان قنصوة الغورى) أشهر النداء في القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه علي دكانه. وصارت التراكمة يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين بالسيوف ثم استمر السيف يعمل فى الكلاب يوما وليلة حتى هجت الكلاب مما دهاهم إلى الترب والصحارى... فلما

تزايد الأمر فى قتل الكلاب ... طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى ملك الأمراء خاير بك وشفع الكلاب من القتل ... فرجع ملك الأمراء عن قتل الكلاب ونادى فى القاهرة بأن ترفعوا القتل عن الكلاب وكل من قبض على كلب يطلقه إلى حال سبيله، فدعوا الناس للقاضى بركات بن موسي الذى شفع فى الكلاب من القتل" [3-11].

ويزور شيشرون، الخطيب الرومانى الشهير، مصر ويكتب عما شاهده أثناء جولته فيقول: "ليس من المألوف سماعه عند المصريين أن يعامل قط أو تمساح أو بجعة معاملة يصيب أحدها بعض الألم من جرائها. فهم يفضلون أن يلحق أشخاصهم أشد العذاب من أن يصل أقل أذى إلى هذه الحيونات" [3-12]. فيستطرد السيوطى قائلا: "من أقام بمصر وجد فى أخلاقه رقة وحسنا" [3-13].

ويأتينا من الماضى صوت الأمير "**آنى**" وهو يتردد فى قاعة "ماعت المزدوجة"

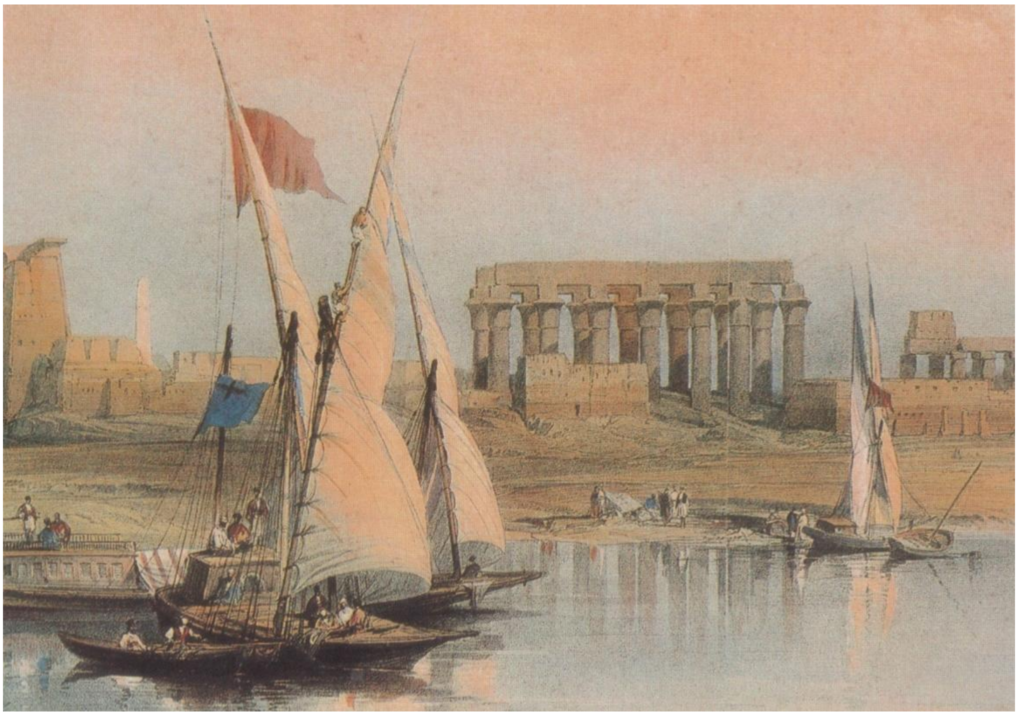
لم أطرد قطيعا من مراعيه
لم أنصب الافخاخ لطيور الآلهة
ولم ألتقط الأسماك بطعم من لحومها



ثزغيط بطة ... من الفن المصر القديم

وأخذتهم العزة بالعمارة

سلام سلاح ... ودون أن يصدر أمر للرجال، إصطفوا فى طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى". هكذا وصف ديفرنوا ما فعله جنود اللواء الواحد والعشرين من جيش الجنرال ديزيه صباح يوم 27 يناير سنة 1779 م، عندما وصلوا إلى منحنى النهر فطالعتهم من على بره الغربى المدينة [3-14]. وكانت المدينة هي **"واست"** ... طيبة ... الأقصر ... عاصمة الإمبراطورية الأولى ... ومقر كبير الآلهة آمون. ولم يحل إنهاك الرحلة المهلكة التى طالت لستة شهور ولا إمتلاء أعينهم بصديد هواء الصحراء، لم يحل بين الجند وبين واجب التحية لآثار قوم أخذتهم العزة بالعمارة فإحترفوا الحضارة وإنهمكوا فى التشييد والبناء.



الأقصر كما رآها جنود الحملة الفرنسية

ولم يكتف الجند بالإصطفاف فى وضع الإنتباه، ولا برفع سناكى بنادقهم تحية لتاريخ أيقظوه، بل سارعوا بتقديم ركبهم لـ "دينون" الرسام وجعلوا من أجسادهم سياجا يحمى عينيه من وهج شمس الصعيد ... فمضى يرسم على الورق بعضا من عبقرية الانسان. ودينون هذا هو المصور الحفار الأديب البارون دومنينك الذى جاوز عامة الخمسين عندما إلتمس من نابليون أن يصطحبه فى حملته على مصر وجاء ليقع أسيرا لسحرها فيمضى يصور بالكلمات ما عجزت خطوطه عن إجلاء معانيه "... ما أظن ان الإغريق أتوا بجديد فليس ثمة ابدع مما أراه ... كما ليس ثمة أبسط ولا أدق من تلك

الخطوط القليلة التى يتألف منها هذا المعمار. فالمصريون الذين لم يستعيروا شيئا من الأمم الأخرى، لم يضيفوا زخرفا دخيلا ولا حشوا واحدا لا لزوم له إلى الخطوط التى أملتها الضرورة. إن النظام والبساطة هما مبدأهما اللذان سموا بهما إلى الذروة ... إن للخطوط قدسيتها التى تحترم وكل ما يبدو للناظر عن قرب سرعان ما يتلاشى على البعد ولا يبقى غير الجوهر الحق المجرد..." [3-15]. وبعد أقل من مائتي عام يأتى مواطنه الفرنسى، المفكر الأديب أندريه مالرو، ليستطرد الحديث قائلا: "... فى حضارات أخرى خلقوا جمال الفن ... أما هنا فقد كان سمو الفن".

ولم تكن معابد الدير البحرى ... الكرنك ... دندرة ... التى ملكت ألباب هؤلاء الجند المنهكين وسحرت قلوبهم حتى قال أحد ضباطها لدينون الرسام: "كنت على الدوام مبتئسا مريضا. ولكن دندرة أبرأتنى. فما رأيته اليوم عوضنى عن كل تعاستى. وأنا لا أبالى الآن بما سيحدث لى فيما بقى من هذه الحملة" [3-16]. ويستطرد مالرو الحديث قائلا: "لقد إكتشفت مصر الأبدية قبل التبليغ الالهى. وكانت المعابد القديمة تشير إلى صراط مستقيم". لم تكن كل هذه الصروح الشامخة التى أقيمت لتتحدى الزمن لم تكن إلا لحنا "من سيمفونية خالدة ... متعددة الفصول ... متباينة المقاطع ولكنها مرتبطة أشد الإرتباط ... ولم يتوقف اللحن خلال هذا التاريخ إلا ليجدد نفسه فى كل مرة... ولكن لم يتخل عن قوته ... لقد بدأ المقطع الأول من تلك السيمفونية الخالدة بمقطع قوى كانت قوته كافية لتوقظ أحجار الجرانيت والبازلت الصلبة، التى تتوسط شاطئ النيل، لتجسم منها أدلة أمثلة لنظريات العمارة فى العالم وتعلن عن ميلاد أول طراز معمارى عرفه العالم ... حيث بدأ بالمصاطب وتدرج ليكون الأهرام وإنتقل من لحن الى لحن ممثلا فى سلسلة من آثار المعابد والنصب التذكارية والمنشآت المدنية ووضع أسس نظرية الإنشاء فى مصر ... وهنا إرتفعت أعمدة المدنية لتلقى الظلال ... فعبرت البحر الأبيض وإنتقلت الى شواطئ أوربا لتضع بذور المدنيات التى ظهرت بعد ذلك ... فإنعكست أعمدة معبد هرم سقارة وبنى حسن لترسم الطرز اليونانية ... والأعمدة المتراصة لتعكس ظلالها على الطرز الرومانية وزخارف العمارة الأتروسكية القديمة فى إيطاليا...". وبقيت هذه الآثار لتشهد على من بناها حتى "إذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى إعتقادهم عن الأوائل بأن اعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه فى ذلك من علم الهندسة وإجتماع الهمة وتوافر العزيمة ومثابرة العمل"، على حد قول الرحالة العربى عبد اللطيف البغدادى.

وكان المصريون هم مؤلفو هذه السيمفونية وكانوا هم عازفوها، فإنصرفوا إلى بناء الجوامع والأديرة ... المعابد والأضرحة ... الكنائس والوكالات ... الأسبلة والخانقاهات ... المشاهد والخانات.



دير الأنبا بولا

ويحفظ لنا التاريخ بعضا من أسماء البنائين العظام. **إيمحوتب** ... مهندس الملك زوسر (2780 – 2761 ق.م) وبانى أقدم أهرامات مصر، الهرم المدرج بسقارة، وهو الذى قدر مواطنوه فضله فرفعوه إلى مصاف الآلهة. **سننموت** ... المهندس الذى شقت عبقريته قلب الجبل وإستنطقت أحجاره الصماء لحنا معماريا فريدا ليكون هدية تليق بمعشوقته الملكة حاتشبسوه (1490–1469 ق.م)، فكان معبد الدير البحرى. **بقطر** ... بانى أول جوامع مصر، جامع عمرو بن العاص. **إبن كاتب الفرغانى** ... الذى بنى لأحمد بن طولون جامعه الشهير (868 – 884 م). **صالح بن نافع** ... الذى بني للاخشيد قصره بجزيرة الروضة وكان أعجوبة فى بنائه. **إبن السيوفى** ... الذى نفذ عمارتي المدرسة الإقبغاوية وجامع الماردينى وكان كبير مهندسى الناصر محمد بن قلاوون (1298 – 1340 م). وتضيع في زحمة التاريخ آلاف الأسماء ... وتبقى فقط الأعمال تشهد لمن بناها بعزة العمارة وبأنفة البناء.

بيت السحيمى ودير الأنبا مقار ... معبد دندرة والكنيسة المعلقة ... وكالة الغورى وضريح أمير كبير ... ضريح الإمام الشافعى ومعبد الدير البحرى. وتتعدد الأشكال وتتباعد الأمكنة وتتفرق الأزمنة ولكنها كلها تجسد وحدة المضمون فـ " العمارة القبطية هي العمارة الفرعونية، وهي العمارة اليونانية الرومانية فى مصر ... وهي العمارة الإسلامية في مصر. وأما الفوارق التى تفصل بينها فهي فوارق

إقليمية إقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما، ثم الإعتبارات الدينية ... ولكنها فى الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية ومهما يكن فإن ما دخل عليها من تحوير أو تكيف بما يلائم ظروف البيئة لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية".

لقد تعددت المباني فتوحدت المعانى ... وإمتد الزمن فتواصل الجوهر وإنتظم فى إستمرارية بلا إنقطاع ... وكانت النغمة فكان الجواب النغم. وكانت عمارة فريدة تسرى بمن يؤمها الى عالم المطلق وتأخذه الى اللامنتاه... فكانت صوفية معمار ورهبنة حجر ... نراها فى معبد سيتى الأول في إبدو الذى كان "بيت ملايين السنين للملك من ماعت رع مبتهج القلب في إبدو". ونراها فى مدرسة وجامع السلطان حسن. فها هي ذى عمارة معبد سيتى الأول تأخذ بروح زائره لترتقى بها فى رفق من حال لحال، وترتفع بها هونا من عالم المادة إلى عالم الروح، فما أن يجتاز صرحه الذى "ينظر إلى السماء" حتى يجد نفسه فى أولى أفنيته "ساحة الأعياد" حيث لا تربطه بالدنيا الا ما يغمره من ضوء شمس النهار وكأنها تطهره تمهيدا للحظة اللقاء. ثم يرتقى الدرجات نحو ثانى أفنية المعبد ليزداد تنائى روحه عن عالم الفناء ويزداد تدانيها من عالم الخلود والبقاء. فهو إذ يجتازه فى صراط مستقيم يجد نفسه فى بهو الأعمدة الأول "بهو التجلى ومكان راحة الإله"، وقد أحاط به 24 عمودا على شكل حزم بردى، يجد نفسه وقد خفت الضوء من حوله إلا من أشعة تفيض على المكان من فتحات سقف يوشك فى إرتفاعه على ملامسة السماء ... أشعة تهبط من عل لتلتقى بأعمدته السامقة الصاعدة فى شموخ ... تلتقى بها لتهيئ روح الزائر لحال جديد. ثم تأخذه عمارة المكان إلى مقام جديد فتمضى به إلى بهو التجلى الثاني ذى الثلاثة والستين عمودا لتتأكد تهيئة النفس لبلوغ أعلى المقامات ... المثول فى حضرة الرب وملاقاته فى "قدس الأقداس" حيث مقصورة الإله، وحيث الأفق يجسد لحظة اللقيا ... لقيا الأرض بالسماء.



واجهة معبد سيتى الأول بـ "أبيدوس"



بهو الأعمدة فى معبد سيتى الأول



مقصورة الإله (قدس الأقداس) فى معبد سيتى الأول

وهكذا تفعل عمارة السلطان حسن ... إذ يؤدى مدخله الرئيسى إلى "دركاه" فخمة تعلوها قبة محمولة على ثلاثة أنصاف قباب من المقرنصات تدفع بزائره إلى تأمل القبة رمز السماء. ثم تأخذ إلتواءات الدهليز بنفس الزائر رويدا رويدا ... تأخذها بعيدا عن العالم الخارجى لتنقلها الى عالم من السكينة والصفاء. وتهيئ عمارة الدهليز ببساطتها وخلوها من الزخارف نفس الزائر لهذا الشعور الجارف بالمطلق الذى يمتلكه عندما يلوح له صحن المسجد وإيوانه الكبير فى نهاية الدهليز [3-17].



جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة

وتبقى المبانى علامة على إشراقات أمة بناءه ... عشقت التشييد وإحترفت العمارة فكانت بعضا من عزها الذى لم ينج من سطوته حتى الغرباء عنها. فهاهم المماليك يجلبون إليها صبية مقطوعى النسب ليضعوا فى طباق قلعة الجبل ... ويدربوا على هدم النفوس وتدمير الأبدان ... ولكنهم عندما يعيدون سيوفهم الى أغمادها تأخذهم عزة الأمة بالعمارة فينصرفون الى البناء. فما أكثر ما شيدوا من مبان بالغة الفخامة والروعة. كانوا وحدهم يعرفون كيف ينقشون على الحجر زخارف التوريق العربية التى لا ضرب لها فى كل المماليك الأسيوية مضيفين على مبانيهم ذلك الجمال الذى يخلب اللب ويأخذ بمجامع النفوس. وينعكس ذلك فيما خلفوه من أبنية لا نعرف لها مثيلا بين تلك التى أنجزها ملوك المسلمين وسلاطينهم فى أي مكان [3-18].

أسمر ملك روحى



النيل ... نجاشى ... حليوة ...أسمر
عجب للونه
دهب ومرمر
أرغوله فى إيده
يسبح لسيده
....

أحمد شوقى

يا نيل
أنا واللى أحبه
نشبهك فى صفاك
لانت ورقت قلوبنا
لما رق هواك
وصفونا فى المحبة
هو ... هو ... صفاك
مالناش لاحنا ولا انت
في الحلاوة مثيل
.... يا نيل

بيرم التونسى

وهكذا كونت الأرض ... أرض مصر ... والإنسان... إنسانها ثنائية عشق غير مسبوق ... توحد فيها العاشق بالمعشوق... توحدا ليكون حب الانسان لأرضه دينا وعبادة ... فتكون صلاة:

بارك إكليل السنة بصلاحك

وبقاع مصر إملأها من الخصب

ليكثر حرثها

ولتتبارك ثمارها

لتفرح كورة مصر

ولتهلل الآكام بفرح من قبل صلاحك

كتاب اللقان والسجدة

توحدا ليكون حب الانسان لأرضه تضحية وشهادة ... فتكون آخر كلمات الشهيد أبا بجول الجندى لجلاده، وبعد ان تم تعذيبه على أيدى جند دقلديانوس، تكون اخر كلماته هي [3-19]:

"لا تسب ارض مصر"

إنها أرض مصر التى جاء عنها فى الكتاب المقدسة

(كجنة الرب كأرض مصر) (تكوين 13-10)

ويأتى ذكرها والإشارة إليها فى القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة وتصور لنا آياته مدى إعتزاز أبنائها بها

(ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) (الزخرف 51)

إنها أرض مصر التى حكى لنا إبن عبد الحكم عنها فى كتابه "فتوح مصر وأخبارها" وحدثنا عن مباركة نوح لحفيده مصرايم بن بيصر بن حام، أول المصريين، على حد إعتقادهم، والتى جاء فيها: "اللهم إنه أجاب دعوتى، فبارك فيه وفى ذرإيتى، وأسكنه الأرض المباركة التى هي أم البلاد، وغوث العباد، التى نهرها أفضل أنهار الدنيا، وإجعل فيها أفضل البركة، وسخر له ولولده الأرض وذللها وقوهم عليها" [3-20].

هكذا أحبها أبناؤها، مصريين كانوا أو متمصرين، أحبوها فإبتدعوا "فنا مستقبلا بذاته من فنون التاريخ كان لمؤرخى مصر فضل إبتكاره، ثم فضل تقدمه وإزدهاره حتي غدت آثاره تكون ثبتا حافلا

فى تراثنا التاريخى" [3-21]. أحبوها فكتبوا عن فضلها وعن فضائلها. فها هو ذا أبو عمر بن محمد بن يوسف الكندى، أول من كتب عنها باللغة العربية، يقول لنا عنها فى كتابه "فضائل مصر": "فضل الله مصر على سائر البلدان كما فضل بعض الناس على بعض، والأيام والليالى بعضها على البعض ... وقد فضل الله مصر وشهد لها فى كتابه بالكرم وعظم المنزلة وذكرها بإسمها وخصصها، دون غيرها وكرر ذكرها وأبان فضلها فى آيات من القرآن العظيم" [3-22]. وتتوالى الأسماء: القاضى أبو عبد الله بن سلامة (المتوفى فى سنة 1006م 457 هـ) و كتابه **"المختار فى ذكر الخطط والآثار"**، أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى الذى كتب عن خططها فى عهد الوزير الفاطمى بدر الدين الجمالى، الشريف محمد بن أسعد الجوانى وكتابه **"النقط بعجم ما أشكل من الخطط"**، القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج (حوالى 1326 م-721 هـ) وكتابه **"إيعاظ المتأمل وإيقاظ المتغفل فى الخطط"**، القاضى محيي الدين عبد الله عبد الظاهر وكتابه **"الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة"**، ثم يأتى المقريزى (1356 – 1442 م / 766 – 845 هـ)، أعظم مؤرخيها فى عصورها الإسلامية، ليستهل كتابه الخالد عنها **"المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار"** بكلمات حب للوطن المكان والإنسان فيقول: "مصر هي مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحاميتى وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره، وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لازلت مذ شذوت العلم وأتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها وأحب الإشراف على الإغتراف من آبارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها" [3-23]. ثم يخاطبها داعيا لها فيقول: "لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظ، ولازال منك ملك وعز، يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة، وسال نهرك عسلا. كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكى نباتك، وعظمت بركتك" [3-23]. ولا تنقطع السلسلة وتتوالى الأسماء فيكتب على مبارك (1824 – 1893 م)، أبو التعليم فى مصر الحديثة، **"الخطط التوفيقية الجديدة"** ذات العشرين جزءا والتى غطت أرض مصر بأكملها مدنها، وقراها، نيلها ترعها وخلجانها.

وهكذا كان فن كتابة الخطط فنا إمتزج فيه الزمان بالمكان، وتزاوجت فيه الجغرافيا بالتاريخ، ليكون تعبيرا عن حب الإنسان للوطن ... حبا إستوى فيه خواص أبنائها بعوامهم فكانت قولتهم السائرة:

اللى بنى مصر فى الأصل حلوانى

هوامش الفصل الثالث

[3-1] الجبرتى، "***المختار من تاريخ الجبرتى***"، كتاب الشعب، 1958، ص. 374 – 375.
[3-2] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 238 – 239.
[3-3] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "***الريف المصرى فى القرن الثامن عشر***"، مطبعة جامعة عين شمس، 1974 ص. 288 – 292.
[3-4] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 568 – 569 ، 709.
[3-5] جيمس هنرى بريستد، "***فجر الضمير***"، مكتب مصر – القاهرة، ص 141 – 142.
[3-6] جيمس هنرى بريستد، سبق ذكره، ص 223 – 224.
[3-7] المقريزى، "***السلوك لمعرفة دول الملوك***"، مطبعة دار الكتب – القاهرة، 1973 الجزء الاول – القسم الثانى، ص. 453.
[3-8] جيمس بريستد، "***نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم***"، الجزء الأول، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، العدد 9، هيئة الآثار المصرية،1987.
[3-9] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الأول – القسم الثالث، ص 790
[3-10] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الأول – القسم الثالث، ص 857.
[3-11] إبن اياس، "***بدائع الزهور فى وقائع الدهور***"، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص. 248.
[3-12] منصور فهمى، "أبحاث وخطرات"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص. 281.
[3-13] السيوطى، *حسن المحاضرة*، الجزء الثاني، ص. 199.
[3-14] ج. كيريستوفر هيرولد، "***بونابرتة فى مصر***"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص. 262 – 263.
[3-15] ثروت عكاشة، "***مصر فى عيون الغرباء***"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الاول، 1984، ص. 79.
[3-16] من حديث مع محمد حسنين هيكل اجراه محمود المراغي ونشر في جريدة الأهالى بتاريخ 1988/11/9.
[3-17] ثروت عكاشة، "***القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية***"، دار المعارف، 1981، ص. 193 – 196.
[3-18] ثروت عكاشة، سبق ذكره، ص. 74.
[3-19] نبيل سليم وجرجس المنياوى، "***الشهيدان أبا بجول الجندى وأبا بجول القس***"، 1966، ص. 23 – 35.
[3-20] إبن اياس، سبق ذكره، ص. 10.
[3-21] محمد عبد الله عنان، "***مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية***"، 1969، ص. 3- 5.
[3-22] المقريزى، "***المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار***"، دار صادر– بيروت، ص. 2.
[3-23] المقريزى، سبق ذكره، ص. 27.

الفصل الرابع

السيرة المصرلية

مصر....
التلات أحرف الساكنة
اللى شاحنة ضجيج
زووم الهوا
وطقش موج البحر لما يهيج
وعجيج
حوافر خيول بتجر زغروطة

صلاح جاهين



تغريبة بنى مصرائيم

الأولة ... غربتى
والثانية ... مكتوب
والثالثة ... كنت غالب صبحت انا مغلوب
وكان يا دهر تتقلب عليها قلوب
صبحت أنا عيان
لونى صبح مقلوب
....
وزعقت من عزم ما بى وقلت يا أيوب
كاس الهنا كل ما اديره يجي مقلوب
أنا ان شكيت ربع ما بى للحديد ليدوب

موال من التراث الشعبى

خيرها لغيرها

"ديار مصر خيرها لغيرها"

مثل شعبى مصرى

"إعمل فيه وعجل، أخرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها"

من رسالة ثانى الخلفاء الراشدين، عمر بن الخطاب، إلى واليه على مصر، عمرو بن العاص، يستحثه على تسخير المصريين فى حفر خليج أمير المؤمنين بين نهر النيل وخليج السويس [الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الربع، ص. 100]

حدثنا شيخنا إبن اياس أنه قد "... روى فى بعض الأخبار، أن يوسف عليه السلام لما دخل مصر وأقام بها، قال: اللهم إنى غريب فحببها إلي وإلى كل غريب". فمضت دعوة يوسف، فليس يدخل مصر غريب إلا وأحب القيام بها [4-1]. ويبدو أن أبواب السماء كانت مفتوحة على مصراعيها فكان دعاء مستجابا، فهام بها الغرباء وتدلهوا فى حبها ...؟..!... وإحلوت فى عيونهم.

ويستأنف الشيخ الجليل الرواية فيمضى قائلا: "فلما ولي الإمام عثمان الولاية، ولى عبد الله بن أبى سرح على مصر، فلما ولي أظهر له نتيجة فى خراج مصر وأورد له أربعة ألف ألف دينار، فقال

عثمان لعمرو بن العاص: **"لقد درت اللقحة بعدك يا أبا عبد الله بأكثر من درها الأول"**. فقال عمرو: **"نعم، ولكنها أجاعت أولادها"**. فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر فى مبتدأ الإسلام" [4-2]. ولم يكن قد مضى على غزو العرب لمصر إلا ست سنوات عندما دار هذا الحوار بين ثالث الخلفاء الراشدين وواليه السابق عليها.

وتهل سنة 96 هـ (715 م) ويكتب الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك إلى متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي قائلا: **"إحلب الدر حتى ينقطع وإحلب الدم حتى ينشرم"** [4-3]. وقد كان الإمبراطور الرومانى تيبريوس (14 – 34 م) أكثر رأفة برعاياه من الخليفة الأموى اذ ارسل لواليه على مصر، عندما إشتط فى جمع الضرئب حتى زادت عن المبلغ المقرر تحصيله سنويا، أرسل اليه قائلا: "لقد أرسلتك لتجز وبر الأغنام لا لتسلخها" [4-4].

ويمضي على حوار الخليفة الراشد وواليه أكثر من ستمائة عام ويتولى أمر مصر السلطان المملوكي المنصور حسام الدين لاجين ... ثم دخلت سنة سبع وستمائة هجرية (1297 م) وفيها "راك الملك المنصور لاجين البلاد المصرية وهو **"الروك الحسامى"** وكانت ضواحى مصر يومئذ مقسومة على أربعة وعشرين قيراطا، منها أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمراء والإطلاقات وعشرة قراريط للجند كلهم" [4-5]. وتصدم الحسبة أحد الأحفاد فيتسائل فى أسى عن نصيب أجداده فى فطيرة هم صانعوها وبعد تفكير عميق وحسابات مدققة وجهد جهيد يكتشف أنه " ... القيراط الخامس والعشرون ... ومكانه مملكة السماء" [4-6] ودار الآخرة.

المسـالمة

عنبر أفندى ... مأمور زراعة القطن بنواحى أبو كبير – شرقية، فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ... عنبر أفندى ... عبد من الرقيق الأسود يتولى منصبا حرم توليه، كغيره من مناصب السلطة والسيادة، على المصريين ... عنبر أفندى كان أحد أمثلة وضع مقلوب تغرب فيه إبن البلد وتمصر فيه الغريب. عنبر أفندى ... صورة لوضع كان تكراره أمرا مالوفا فى تاريخ المصريين فمنذ أكثر من أربعة آلاف عام يكتب **"إيبورور"** واصفا أحوال البلاد أثناء الإنهيار الذى حدث فى آخر أيام الأسرة السادسة (2420 – 2280 ق.م) فيقول: "... أنظر ... ما الذى جعل الأرض الحمراء (الصحراء) تنتشر فى طول البلاد وعرضها، وخربت الأقاليم، وجاءت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريين فى مكان، وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا غرباء، وأهملوا جانبا" [4-7].

وتستفز الصورة، صورة عنبر أفندى، مشاعر الصغير، وكان الصغير فلاحا مصريا فيقبل التحدى ويمضى ليشق طريقه وليعبد الدروب لأبناء جلدته من عامة المصريين. أما الصغير فكان على مبارك (1824 – 1893 م)، الذى كتب لنا فى خططه عن مدى تغلغل الغرباء. ففى حارة الجوانية الكبرى بمدينة القاهرة "نجد أن أغلب سكانها من نصارى الشوام والأورام. وبها من الدور الكبيرة دار رفلا عبيد الذى كان تاجرا من نصارى الشوام وإشتهر بالتجارة حتى صار من أغنياء وقته وإشترى بهذه الحارة أملاكا منها دار كبيرة كانت معروفة بدار الشنوانى". أما فى مدينة طنطا فـ "إن الإنجليزى حمص كان يملك وابورا لحلج القطن وطحن الحبوب وسقي المزروعات. وهناك وابورات أخرى مملوكة للأجنبى قرداحى والأجنبى إسكندر مرسينا واليونانى نجربنتو والأجنبى معوض والضمانى وغيرهم". وفى قرية الكوم الأخضر (بحيرة) أنشات الكومبانية الزراعية عزبة فى شرقى هذه القرية سميت الكوم الاخضر وسكنها رجال من الكومبانية (الأجانب) وإستولوا بطريق الشراء ونحوه علي نحو إثني عشر فدانا جيدة الزرع". أما فى الإسكندرية "فكان أول من إشترى فى الرمل الخواجة سيزنيا فانه إشترى من ملك عائلة أبى شال – وكان لهم أرض متسعة – جانبا عظيما بمبلغ 60 كيسة". ولم يكن شراء الأراضى هو الطريقة الوحيدة لإمتلاكها فـ "قد إشترى الإفرنج بالحيلة والخداع الكثير من تلك الأرض وشيدت بها قصور ومنازل" [4-8].

ويمضى الأغراب من كل جنس وملة ... ومن كل عرق ولون ... يمضون فى حيازة خير الأرض وجهد الإنسان ... يمضون فى تقلد الأمور وفى ممارسة سطوة السيادة ومظاهر السلطان ... يمضون تظلهم إمتيازات أجنبية وتحميهم محاكم مختلطة، قال عنها القاضى الهولندى فان بملن، الذى تولى منصب القضاء بها فى عهد الخديوى إسماعيل (1863 – 1879 م)، "إن الأوربيين يعبرون عن إختصاص المختلط للقنصليات بانه نشأ عن "العرف"، وفى حقيقة الأمر أنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء" [4-9]. يمضون وهم يعيشون فى مجتمعات منغلقة عليهم [4-10] يتحاورون فيها بألسنتهم الأجنبية ... يمارسون طقوس التعالى والإزدراء علي ثقافة الأمة وينظرون من عل إلى كافة المصريين. ويعيش أولئك فى أرضهم وهم عنها غرباء فإن جاءت سيرتهم فى معرض الحديث فهم ليسوا إلا "حميد الأعور أرق البرابرة" [4-11].

وقديما جاءتنا الأخبار عن معاوية بن ابى سفيان أنه قال: **"وجدت مصر ثلاثة أصناف، فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. أما الذين هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس**

فالموالى، والثلث الذين لا ناس المسالمة" ... يعني القبط (المصريين من مسلمين ومسيحيين كما كان يطلق عليهم) [4-11].

الخلود.. تأملات فى عبقرية البقاء

النبوءة

إنـهض........

فلن تفنـى........

لقد نوديت باسمك،

لقد بعثت....................

من كتاب "الخروج إلى وضح النهار"

(المعروف باسم كتاب الموتى)

وكانت كلمات كتبتها فى البدء الأجداد ... فكانت فاتحة لكتاب التاريخ وبشارة للقدر الآتى ... وذهبت فى الزمن نبوءة. ويدور الزمان دورته ... ويأتينا بحكمه ... فيكشف باليقين عن صدق البشارة وبتكرس البرهان. ويكتب أحد الأحفاد "منذ فجر التاريخ يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل ... متجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسيمة. وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم دون أي إبتعادات ملموسة عن النمط الأول أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة" [4-13].

ويبقى المصريون ... شعبا ... وجنسا ... وآية على عبقرية البقاء.

إحصائية الموت

وما بين أول الزمان وآخره تحتشد البلايا ... وتزدحم الرازيا ... تتعاقب الخطوب ... وتتأكد المحن. وتنهش في جسد الأمة مجاعة ويلتهمه وباء ويصبح الموت قاعدة مرعية وتصبح الحياة نشاز لحن وإستثناء.

فها هو ذا الفناء .. مجاعة ووباء ... يدهم الديار المصرية أكثر من ستين مرة فى أقل من ثلثمائة سنة هي كل عمر مصر المملوكية. فكان حتما مفروضا وقدرا مكتوبا على الأمة أن تلقاه كل أربع سنوات. فياله من قصر فى الدورة ويالها من سرعة فى الإيقاع.

فإن عجزت الأرقام عن بيان شدة الوطأة، فها هي ذى جعبة الشيوخ الرواة تزخر بالحكايا وكلماتهم الحية تقيم الحدث وتنفخ فى الصور.

وعظم الموتان فى أعمال مصر

" ... فكنت أسمع الفقير يصرخ بأعلى صوته: "لله ... لبابة قدر شحمة أذنى، أشمها وخذوها، فلا يزال كذلك حتى يموت ..." [14-4].

عبارة إختزلت كلماتها عظم المأساة، وجسدت في بلاغة الإيجاز، هول الخطب. عبارة قالها شاهد عيان ومضي يرسم لنا بكلماته ملامح خطب جديد. يقول لنا شيخنا المقريزى عن مجاعة سنة 1295 م (695 هـ): "وعجز الناس عن مواراة الناس في القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم، فعملت حفائر كبار ألقيت فيها الأموات من الرجال والنساء والصبيان حتى تمتلئ الحفرة ثم تطم بالتراب ... وصارت الولاة بالقاهرة ومصر تحمل الأموات فى شباك على الجمال، ويعلقون الميت بيديه ورجليه من الجانبين ويرمى فى الحفر من غير غسل وكفن. ورمى كثير من الأموات فى الآبار حتى تمتلئ ثم تردم. ومات كثير من الناس بأطراف البلاد فبقى على الطرقات حتى أكلته الكلاب وأكل منها بنو آدم أيضا ... وعظم الموتان فى أعمال مصر كلها حتى خلت القرى" [15-4].

ويأخذ شيخنا إبن اياس الحديث ويحدثنا عن الوباء فيقول: "وقد وقع فى هذه السنة (833/1430 هـ) أهوال عظيمة ولا سيما ما وقع بمصر من امر الطاعون الذى كان عاما فى جميع البلاد وكانت الناس تتساقط فى الطرقات موتى، حتى كان الرجل أو الإمرأة يكتبون على رؤوسهم أوراقا بأسمائهم وإسم حاراتهم وسكنهم حتى إذا ماتوا فى الطرقات يعرف أمرهم. وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى شدة حال بما وقع فى هذه السنة ومات فيها من أهل مصر نحو الثلث [16-4].

بوليرو الفناء

ويعود بنا إبن أياس الي عهد الخليفة الفاطمى المنتصر بالله (1000 م/451 هـ) ليحكى لنا عن أنباء الشدة المستنصرية التى دامت سبع سنوات. يحكى لنا عن الحدث فى لحن من الكلمات تتصاعد إيقاعاته مع هول الماساة:

"فشرقت البلاد، وحصل للناس ما لا خير فيه، ووقع الغلاء العظيم. ثم إشتد الأمر حتى بيع كل رغيف بخمسة عشرا دينارا وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط. وقيل أن الكلب كان يدخل الدار فيأكل الطفل وهو فى المهد وأبوه وأمه ينظران إليه فلا يستطعان أن ينهضا لدفع الكلب عن ولدهما من شدة الجوع ......

ثم إشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ إبن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك بين الناس ...

ثم إشتد الأمر حتى صار الناس إذا مروا فى الطرقات وقوى القوى على الضعيف فيذبحه ويأكله جهارا ...

ثم أعقب هذا الغلاء فناء عظيم حتى فنى من أهل مصر نحو الثلث فكان الجندى يتوجه بنفسه هو ومن بقى من خشداشيته وينزل بلده ويحرث هو و خشداشيته ويزرعون وذلك لعدم الفلاحين ...." [4-17].

وإنقضت هذه السنة

ويوشك القرن الثامن عشر على الإنتهاء بسنواته الزاخرة بالمحن والخطوب التي يحدثنا شيخنا الجبرتى عن أحداها (1792 م / 1207 هـ) قائلا: "إستهل والأمر فى شدة من الغلاء وتتابع المظاليم وخراب البلاد ... وشتات أهلها وإنتشارهم بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة، رجالا ونساء وأطفال، يبكون ويصيحون ليلا ونهارا من الجوع ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع ... وشحت النفوس وإحتجب المساتير وكثر الصياح والعويل فلا تكاد تقع الأرجل إلا علي خلائق مطروحين بالأزقة. وإذا وقع حمار أو فرس تزاحموا عليه وأكلوه نيئا ولو كان منتنا ... حتى صاروا يأكلون الأطفال.." [4-18].

ويذهب تواتر المحن وتعاقب البلايا بحرارة الكلمات فلا يبقى لها إلا برودة العادة ورتابة التكرار وتأتي منهكة، فى إقتضاب، لتروى الخبر وتسجل الأحداث: "... وفى ربيع الآخر إشتد أمر الفناء والغلاء بالديار المصرية وعم سائر ضواحيها ومات من أهل القاهرة والفلاحين نحو النصف" [4-19]. وإكتفى إبن أياس بهذه الكلمات فى معرض حديثه عن مجاعة سنة 1419 م (822 هـ): "ولا غرابة فقد صار الأمر عادة. ولا يجد الجبرتى ما يقوله عن سنة 1784 م (1198 هـ) إلا تلك العبارة "وإنقضت هذه السنة – كالتى قبلها – فى الشدة والغلاء والفتن المستمرة ..." [4-20].

الذبائح

"عجلت بالأضحية على الناس" عبارة قالها السلطان المملوكى الأشرف زين الدين أبو المعالى لأحد أمرائه، الأمير بكتمر المؤمنى، عشية عيد الأضحى (1365 م/770 هـ) وإثر المذبحة التى يحدثنا عنها شيخنا المقريزى قائلا: "... فركبت المماليك السلطانية والأوجاقية وحملوا على العامة وقتلوا منهم جماعة وقبضوا علي خلائق منهم. وركب الأمير ألجاي اليوسفى وقسم الخطط والحارات على الأمراء والمماليك وأمرهم بوضع السيف فى الناس. فجرت خطوب شنيعة قتل فيها خلائق ذهبت دماؤهم هدرا وأودعت السجون منهم طوائف. وإمتدت يد الأجناد إلى العامة، حتى كان الجندى دحل حانوت البياعمن المتعيشين ويذبحه ذبحا ويمضى. وحكى بعضهم أنه قتل بيده فى هذه الواقعة من العامة سبعة عشر رجلا" [4-21].

وقعت تلك الواقعة ولم تكن مرت علي تجريدة السلطان صلاح الدين صالح إلى الصعيد إلا إثنتا عشرة سنة. وقد كانت تلك التجريدة" واقعة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان من الواقعات المشهورة، فقتل من العربان فيها فوق العشرة آلاف إنسان. فصار الأمير شبخوا يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول "دكيك" فلا يزال يقطع من رؤوس العربان والفلاحين، الذين بضياع الصعيد وحتي بنى من رؤوسهم عدة مصاطب ومآذن على شاطئ بحر النيل كما فعل هولاكو ببغداد.. وكانت حادثة صعبة مهولة" [4-22] .

ويبدو أن لدماء الذبائح المصربة نكهة طيبة حببتها للكثيرين. فها هو ذا الإمبراطور الرومانى دقلديانوس يأتى إلى مصر سنة 284م مقسما أن تصل دماء شعبنا الى قوائم فرسه. وكان الرجل عند كلمته وأوفى بقسمه ".. ولم تكف لهذه الفظائع أيام وشهور بل كانت تستمر سنين وهي فى أفظع حالاتها، وكثيرا ما كان يصدر حكم بقتل عشرة أشخاص فى لحظة واحدة، وأحيانا يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة وأحيانا ثلاثين وستين. ومرة حكم على مائة رجل بالموت فماتو فى يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار وذلك بعد أن ذاقو من العذاب ألوانا .. فكان البعض تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون فى أتون النار المتقدة حتى أن السيف الذى كانت تقطع به الرؤوس ثلم وفل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب. وكذلك السيافون تعبو وخارت قواهم من ذبح الآدميين فكانو يستريحون هنية ريثما يتفسون الصعداء" [4-23]. وتكون هذه المذبحة بداية للتاريخ القبطى تخليدا لعصر الشهداء.

وبعد الزيارة الدموية للامبراطور الرومانى دقلديانوس بأكثر من ألف عام، تأتى زيارة الخليفة العباسى لمصر (832م / 217هـ) "..ثم أن المأمون عين الإفشين، وكان شجاعا بطلا ..؟ فأخذ طائفة

من العسكر، وتوجه إلى أعلى الصعيد وحارب أهلها وقتل منهم جماعة كثيرة، وأسر النساء والصبيان وأحضرهم بين يدي المأمور فأمر بقتل الرجال وبيع النساء والصبيان وكان أكثرهم من القبط والحوف" [4-24].

وتمتلئ جعبة الشيوخ الرواة بأخبار الذبائح البشرية والإحتفالات الدموية، فما أن إستولت العثمانية على الديار المصرية (1517م / 923هـ) وتمكنت من القاهرة حتى ".. طفشت فى العوام والغلمان من الذعر وغير ذلك، ولعبو فيهم بالسيف، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لاجنى فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة، ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة، فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلي الصليبة فوق العشر آلاف إنسان فى مدة هذه الأربعة أيام. ولولا لطف الله تعالى لكان السيف فى أهل مصر قاطبة.. وقتل آخرون من الأمراء الطلبخانات والعشرات والخاصكية وغير ذلك. وصارت الجثث مرمية فى الرملة إلى سوق الخيل إلى الخيمتين، وقد تناهشت الكلاب أجسادهم. وصارت الخيول مرمية فى الرملة وفى الأسواق والأزقة، وقد قتلو بالبندق والرصاص فى الواقعة. ولم تقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط، إلا أن كان زمن البخت نصر المايلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعساكره ويخربها وهدم بيت المقدس، ثم دخل مصر وأخربها عن أخرها وقتل من أهلها ألف الف الف إنسان، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهي خراب ليس بها ديار ولانفخ نار، فكان النيل يطلع وينغرس على الأرض ويهبط فلا يجد من يزرع الأرض عليه ولاينتفع به. لكن هذه الواقعة لها فوق الألفي سنة قبل ظهور عيسى إبن مريم عليه السلام .. فوقع لأهل مصر مايقرب من ذلك .." [4-25].

وتأتى سنة 1798 م ويحصى علماء الحملة الفرنسية تعداد الشعب المصرى فيجدون أنه لايزيد علي مليونين ونصف المليون وكان هذا العدد هو كل ماتبقى من أمة بلغ عدد تعدداها العشرين مليونا منذ آلاف السنين.

تفرج

"**أنظر**: لقد عم الحزن البلاد من أقصاها إلى أقصاها، والناس يستغيثون ولا مغيث، يسجيرون ولا مجير.

أنظر: لقد أصبحت الحياة مرة حتى عافها الناس، رخيصة حتي هانت على الناس، يقول الكبير: يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، ويقول الصغير ليت أمى لم تلدنى.

أنظر: لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش، ويشربون الماء ولا توجد فاكهة، كما لا يوجد عشب يأكل منه الحيوان والطير وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير ولم يعد أحد يقول هذا لى فخذه بدلا عنى لأن القوم صاروا جياعا.

أنظر: لقد ضاع محصول القمح، وأصبح القوم لا يجدون لبانا أو عطورا أو زيتونا وأصبحت مخازن الحبوب خاوية.

أنظر: لقد قل الود، وإنقطع الرجاء، وإنعدمت الرحمة، وفقدت المروءة حتى أصبح المرء لا يتورع عن قتل أخيه" [4-26].

ويسود الوجوم الحضور، ويمضى الشيخ الحكيم "**إيبوور**" فى تقريع بيبى الثانى (الأسرة السادسة 2420 – 2280 ق. م) ولومه هو رجال حاشيته على ما آلت اليه أحوال البلاد فى أيامهم. وتمضى كلماته ترسم صورة واقع وحال كان على الأمة ان تلقاه من حين لآخر ومن آن لآخر.

وتستكمل ملامح الصورة كلمات الكاهن المرتل "**نفر روهو**" وهو يقول: "لقد أصبحت هذه البلاد خرابا فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع ... فأي حال عليها تلك البلاد..؟.. لقد حجبت الشمس فلا تضئ حتي يبصر الناس ... أصبح نيل مصر جافا فيمكن للانسان أن يخوضه بالقدم، وصار الإنسان عندما يريد ان يبحث عن ماء لتجرى عليه السفن يجد طريقه قد صار شاطئا والشاطئ قد صار ماء. وكل طيب يختفى، وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو الذين يغزون البلاد. وظهر الأعداء فى مصر فإنحدر السيويون إلى مصر.. الرجل يجلس فى عقر داره موليا ظهره عندما يكون الآخر يذبح بجواره. الإبن صار مثل العدو، وصار الأخ خصما، والرجل يذبح والده.. وكل الأشياء الطيبة ولت، والبلاد تحتضر.. وأونو لن تعد مكان ولادة كل إله" [4-27].

وتمر قرون وقرون ويبقى للصورة تكرارها المعهود، وتمتلئ بوصف وقائعها وأحداثها كتب الشيوخ وحوليات الرواة. وتأتى سنة 1801 م ليحكى لنا شيخنا الجبرتى عن بعض أحداثها فيقول: "ومنها شحت المراكب، حتى أن المسافر يمكث الأيام ينتظر مركبا.. فلا يجد.. وربما أخذوها بعد تمام وسقها.. فنكتوه واخذوها. ومنها تسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم.. حتى إمتنعت الناس من المرور فى جهات سكنهم إلا أن يكونوا فى عزوة ومنعة وقوة. ولا تكاد ترى شخصا يمر فى الأسواق السلطانية من بعد المغرب وقبيل العشاء.. وإذا إضطر الإنسان إلى المرور فى تلك الأوقات فلا يمر إلا كالمجازف مع نفسه.." [4-28].

وتتكرر الصورة فى إيقاع رتيب ولا تخلف الميعاد فى عصر من العصور ... فلا يخمد تكرارها جذوة الأمل فى المخلص الآتى "فهو يطفئ اللهيب.. ويقال عنه أنه راعى لكل الناس ... ولا يحمل فى قلبه شرا. وحينما تكون رعيته متفرقة فإنه يصرف يومه فى جمع شتاتها ... وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل إبن الإنسان إسمه باقيا أبد الآبدين ... أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواهم خوفا منه. والأسيويون سيقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة سيخضعون لبطشه. وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه، والعدالة (ماعات) ستعود إلى مكانها، والظلم ينفى من الأرض ... فهنيئا لمن سيرى ذلك" [4-29].

ويشتد الكرب.. يعظم الخطب وتثقل الوطأة ... فيقر فى القلوب المثل السائر **"دوام الحال من المحال"** ... ويزداد الأمل فى الفرج بعد الشدة فـ **"لله فى خلقه من قديم عادة ... وإنتظار الفرج عبادة"** ... ويردد شعبنا تعويذة بقائه تميمته الحافظة وكلمته الخالدة... **"تفرج"**.

الكل فى واحد

وإذ تمضي السنون بأحمالها، يبقي شئ فى صلب التكوين، يحفظ للأمة البنية ... يصون الكينونة ... ويقيم الديمومة ... وبه تتأكد إرادة الحياة.

فها هو ذا الفناء يكون .. ويأخذ قارب شيحة المليح والمليحة (تعبير عن الطاعون الذى لم يسلم من تهكم المصريين) حتى: " لم يبق بمصر عامر إلا شط النيل. وكانت أهل القرى تخرج للحرث فيموت الرجل وهو ماسك المحراث ..." [4-30]. فيالها من صورة جسدت كلماتها إرادة الحياة ... أوجزت فأسهبت وحدثتنا عن اقنوم البقاء فإذا ببشارة الرب:

(مبارك شعبى مصر) [أشعيا 25]

حية، واذا بكلمات قرآنه

(جنات وعيون وزروع ومقام كريم) **[**الدخان 26**]**

تكون.

ويأتينا صوت محتشمى زايد [4-31] مرتجفا ... هامسا ... "شارفت الثمانين وما وسعنى أن أعرض عن الدنيا هى دنيا الله وهبته الخاطفة لنا ... فكيف أعرض عنها ؟. أحبها ... ولكن حب الحر التقي العابد". فتكشف لنا كلماته عن سر ديمومة المصريين ... لقد أحبوا الحياة وشغفوا بها حتى الثمالة ... ولكنه كان دوما حبا فريدا تفرد الكيان ... تمثلت فيه خصوصية الأمة وتجلى فيه تميز البنيان. حبا

توحد عالم الغيب فيه بعالم الشهادة ... فحوى التهتك والورع ... الزهد والولع ... التقوى والفجور ... الحزن والسرور. فكان سرها الذي وشت به عبرة العصور وخلاصة الحقب نستشفه من ثنايا التاريخ ونستخلصه من واقعة وحدث.

فها هي ذى صورهم منقوشة على جدران المقابر... صور حية ملونة تنطق الحجر ... فتأخذنا بسحرها لنعيش بينهم لحظات لهوهم ولا ندرى إن كانوا يعيشون فينا أو أننا بعض من كلهم. ويمتد



السماط زاخرا بخيرات أرضهم ... عصيدة من دقيق الشعير ... سمان مطهى ... أوز محشى ... طواجن حمام ... سمك مطبوخ منزوع الرؤوس ... أرغفة من القمح مثلثة ... كعك صغير مستدير ... نبق وتين ... وتدور الكؤوس فيشربون الجعة ... ويرشفون نبيذ البلح ... يثملون وينتشون وتتمايل الرؤوس طربا على غنج هارب (بينه)، تغمز أوتاره أنامل عازف ضرير وتصفق الأكف على إيقاعات التثنى ... تثنى عود راقصة هيفاء تشف غلالتها الرقيقة عن مفاتن الجسد، وعلى نغمات أرغول (ماة) تشدو مغنية من واست (طيبة-لأقصر) وهى تغازل أوتار عود صغير استرخى لدفء أحضانها،

فتح الليلة ده عنيك ... صحصح
فرفش ومتع نفسك بالمغنى والألحان
هيص وزقطط ... وارمى ورا ضهرك همومك
وما تشغلش الليلة ده بالك إلا بالهنا والسرور

ده مسيره يوم يجيلك هادم اللذات.

فهكذا كان "المصريون القدماء منذ آلاف السنين، فى الماضى السحيق، ... كانت عندهم مع المرثيات أغان تدل على شدة تعلقهم بالحياة ومباهجها. وكانوا، مثل المصريين المعاصرين، يحبون الدعابة ويتقنون صناعتها ويحبون الغناء والطرب. وفضلا على هذه الحقائق - وهى واضحة الدلالة علي تشبث المصريين على مر العصور بالحياة وإقبالهم عليها وعدم رفضها – نجد أن المجتمع المصرى، على الرغم من قدمه، مجتمع مستمر، أي أنه باق منذ نشأته حتى الآن. وبالاضافة إلى ذلك، نلاحظ أن سمة حب الحياة والإقبال عليها وعدم رفضها لا تزال باقية فى نفوس المصريين المعاصريين. يبدو ذلك واضحا فى إقبالهم على الطعام الشهي والمتعة الجنسية والاهتمام بالمظهرية فى الملبس وفى الإحتفالات والأعياد، كما يبدو واضحا فى ندرة وقائع الانتحار المنظورة أو وقائع الشروع فى الانتحار المنظورة التى تحدث في محيطهم" [4-32].



عازف ربابة

ولكن وقبل أن ينفض السامر ويقوم السمار تمر الخادمة بمومياء فى تابوت. نموذج للنهاية تدور به لتذكر الغافلين بيوم الدينونة وبساعة الحساب. يوم توضع فيه الريشة والقلب على كتفي الميزان (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) [الأعراف 8-9]. وكأنهم فى لهوهم صوفية تلتمس الحق وتسعى على الطريق فـ "الكامل إذا سمع طرب ... ومتى طرب شرب ... وإذا شرب طلب ... ومتى طلب غاب ... وإذا غاب حضر ... ومتى حضر نظر ...

وإذا نظر حصل ... ومتى حصل وصل ..." [4-33]. ونضحك ويضحكون ... وتنزل من الفرح الدموع ... وفجأة نصمت ويصمتون ... ونقول ويقولون "اللهم إجعله خير".

هذه هي مصر التى جائتها من المسيح البشارة فأعطت مالقيصر لقيصر وما لله لله وجائتها من أحمد الرسالة فعاشت لدنياها كأنها تعيش أبدا وعملت لآخرتها كأنها غدا تموت.

هذه هي مصر التى جمع كيانها المتناقضات ... ووسعت بنيتها الأضداد ...فكان الخصب والجدب ... وكان الرمل والطين ... الماء والجفاف ... اللاهوت والناسوت.

هذه هي مصر التى تميزت قاهرتها الفاطمية بوجود "الفرج فى ظواهرها ودواخلها، وقلة الإعتراض عليه فيما يذهب اليه نفسه، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق، أو تجريد .... ولا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذات الأوتار، ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك ...". وعن خليجها، الذى هو بين القاهرة والفسطاط، يستأنف شيخنا الراوى الحكاية فيقول: "عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمخالعة، حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب. وللسرج فى جانبيه منظر فتان وكثيرا ما يتفرج عليه أهل الستر" [4-34].

ولكنها، هى نفسها، أنجبت أوريجون السكندرى (185 م) سيد شراح الكتاب المقدس ومعلم الظاهر والباطن فى مناهج التفسير. وقدمت للإنسانية باخوم إبن واست (طيبة-الأقصر) (275– 349 م) أبو الشركة ... مؤسس الرهبنة الديرانية ... وواضع الفرائض الرهبانية ... وبانى أول أديرة العالم في طابانا، بالقرب من دندرة. باخوم الذى بقيت كلماته "فإحفظوا أنتم الأشياء التى أوصيكم بها مرات كثيرة ... فكونوا ساهرين فى الصلوات ... جارين فى أعمالكم ... وإهربوا من المخاطبات مع أولئك الذين يمكنهم أن يسلبوا منكم فضيلة الإيمان أو يعكسوا إستقامة عوائدكم" [4-35] مسطورة إلى أبد الأبدين فى قلوب الأتباع.

ومن أخميم أخرجت مصر أبو الفيض ثوبان ... ذو النون المصرى (791 – 851 م/175 – 245 هـ) الذى "كان ممن يقرأ أخبار البرابى (المعابد) وآثارها. وإمتحن كثيرا مما صور ورسم عليها من الكتابة والصور" [4-36]. وكان أول من تكلم فى أحوال ومقامات أهل الولاية و "تقلد علم الباطن

والإشراف على كثير من علوم الفلسفة، وكان كثير الملازمة لبربا بلدة أخميم فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة" [4-37].

هذه هى مصر ... إذ تجلى مكنونها ... وأفصحت عن نفسها ... فكان لاهوت وجودها ... وفقه خلودها... وجدليتها للبقاء ... وسرها الخالد ... الكل فى واحد.

هوامش الفصل الرابع

[4-1] إبن أياس، "***بدائع الزهور فى وقائع الدهور***"، الجزء الأول-القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984 ، ص. 7.

[4-2] إبن أياس ، سبق ذكره، ص. 113.

[4-3] سيدة إسماعيل كاشف، "***مصر فى عصر الولاة"، تاريخ المصريين***، ،14 الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 88.

[4-4] آمال الروبى، "***مصر فى عصر الرومان***"، الطبعة الثانية، دار البيان العربى– جدة، 1984، ص. 84.

[4-5] إبن أياس، سبق ذكره، ص. 397.

[4-6] حسين فوزى، "***سندباد مصرى***"، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1969، ص. 28.

[4-7] من أقوال الحكيم المصرى "**إبيؤور**" وهو يصف ما آلت إليه الأمور فى آخر الأسرة السادسة.

[4-8] على مبارك، "***الخطط التوفيقية***".

[4-9] عبد الرحمن الرافعى، "***عصر اسماعيل***"، الجزء الثاني، دار المعارف، ،1982 ، ص. 118.

[4-10] على سبيل المثال لم يقبل نادى الجزيرة الرياضى لعضوية أى مصرى قبل سنة 1942.

[4-11] إحدى شخصيات الرواية الشهيرة "رباعية اسكندرية" للكاتب الانجليزى لورنس داريل.

[4-12] سيدة إسماعيل كاشف، سبق ذكره، ص. 118.

[4-13] جمال حمدان، "***شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان***"، الجزء الثانى، عالم الكتاب، 1981، ص. 278.

[4-14] المقريزى، "***السلوك لمعرفة دول الملوك***"، الجزء الثالث القسم الأول، مطبعة دار الكتب – القاهرة، 1973، ص. 234.

[4-15] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الأول – القسم الثالث، ص. 814.

[4-16] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الثانى ص. 136.

[4-17] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الأول–القسم الأول، ص. 217.

[4-18] الجبرتى، "***المختار من تاريخ الجبرتى***"، كتاب الشعب، 1958، ص. 232 .

[4-19] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الثانى، ص. 45.

[4-20] الجبرتى، سبق ذكره، ص. 28.

[4-21] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الأول–القسم الثالث، ص. 174.

[4-22] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الأول–القسم الأول، ص. 550.

[4-23] من رواية أسابيوس، المؤرخ الذى زار مصر بعد هدوء موجة الإضطهاد بقليل.

[4-24] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الأول– القسم الأول، ص. 148.

[4-25] إبن أياس، سبق ذكره، الجزء الخامس، ص. 156.

[4-26] محمد بيومي مهران، "***الحضارة المصرية القديمة – الآداب والعلوم***"، دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية، 1989 ، ص. 293.

[4-27] محمد بيومي مهران، سبق ذكره، ص. 303.

[4-28] الجبرتي، سبق ذكره، ص. 510.

[4-29] جيمس هنرى بريستد، "***فجر الضمير***،" مكتبة مصر – القاهرة، ص. 216.

[4-30] المقريزى، سبق ذكره، الجزء الأول– القسم الأول، ص. 128.

[4-31] أحد شخصيات رواية "يوم قتل الزعيم" للروائى المصرى نجيب محفوظ.

[4-32] سيد عويس، "***الخلود في حياة المصريين المعاصرين***"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص. 232.

[4-33] محمد بن اسماعيل الشهاب، "***سفينة الملك***".

[4-34] إبن سعيد، "***النجوم الزاهرة فى حلي حضرة القاهرة***"، مطبعة دار الكتب– القاهرة، 1970، ص. 30.

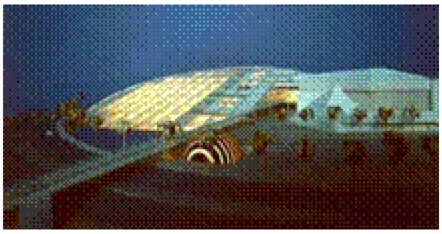
[4-35] منسى يوحنا، "***تاريخ الكنيسة القبطية***"، مكتبة المحبة، 1983، ص. 184.
[4-36] المسعودى، "***مروج الذهب***" ،الجزء الأول ،ص. 360.
[4-37] القفطى، "***تاريخ الحكماء***"، ص. 185.

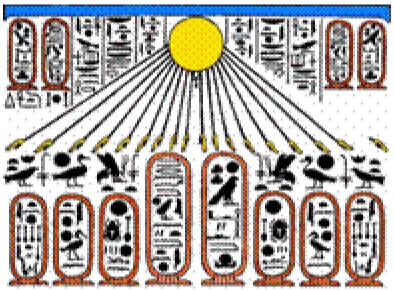
الفصل الخامس

القومية المصرية: بانوراما الختام









تعرضت الفصول السابقة لموضوع القومية المصرية كل من منظور مختلف. فنظر الفصل الثانى (القومية المصرية: التجليات) لشواهد وجودها عبر العصور التاريخية التى مرت بها الأمة المصرية وذلك من خلال بعدين. البعد الأول هو إحساس الأمة بذاتها وبإختلافها عن الآخرين والذى أطلقنا عليه **"إحساس بالذات قيوم"**. وهو الإحساس الذى نشأ وتمثل فى ظهور مصر كأول **"أمة-دولة"** فى تاريخ الإنسان وتبدى عبر التاريخ فى نزوع حكامها الأجانب إلى الإستقلال بها، هذا بالإضافة إلى نزوعها للإستقلال الروحى (الكنيسة القبطية على سبيل المثال). أما البعد الثانى، الذى أطلقنا عليه **"وحدة شعور تدوم"**، فكان لبيان إستمرارية العديد من القيم التى تميزت بها الأمة المصرية عبر العصور، منذ عصر النشأة وحتى العصرالحالى. وكان الفصل الثالث (القومية المصرية: الاشراقات) عرضا لبعض ملامح و إبداعات الأمة المصرية على الصعيدين المعنوى والمادى. أما الفصل الرابع (السيرة المصرلية) فكان مجموعة من القطات التى تصور بعضا من لحظات المعاناة والظلم التى تعرض الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل.

وبالطبع كان الفرض الأساسى التى قامت عليه هذه الفصول هو وجود شيئ معنوى يمكن تسميته بالـ "القومية المصرية". وهنا تبرز مجموعة من الأسئلة المشروعة التى من أهمها مايلى:

1. **ماهى العناصر الموضوعية التى أسهمت، ومازالت تسهم، فى تأسيس "القومية المصرية"؟ أو بعبارة أخرى مدى صحة الفرض الرئيسى الذى قام عليه هذا الكتاب وهو وجود "القومية المصرية"؟**
2. **ماهى المراحل التى يمكن أن يمر بها الشعورالقومى؟**
3. **ماهى الأهمية العملية المرتجاة من وراء إبراز وإعادة إحياء مفهوم "القومية المصرية"؟**

وهى الأسئلة التى سنخصص هذاالفصل للإجابة عنها.

حاشية أكاديمية حول مفهوم القومية

تذخر أدبيات الفكر القومى بالعديد من التعريفات لمفهوم "القومية" التى يركزأغلبها على خمسة عناصر تشكل القومية وهي [5-18]:

1. المنطقة الجغرافية والوطن التاريخي.
2. وجود ما يسمى بأساطير وذاكرة تاريخية مشتركة.
3. وجود ثقافة شعبية مشتركة.
4. منظومة حقوق وواجبات مشتركة لكافة أعضاء هذه القومية.

5. قيام اقتصاد مشترك مرتبط بمناطق معينة.

ويشير سليمان [5-18] إلى وجود مقاربتين رئيسيتين لتعريف القومية:

- **مقاربة موضوعية** (objective) تركز على وجود كل أو بعض عناصر تتوافر لدى الأمم مثل الجغرافيا، والدولة، واللغة، والثقافة المشتركة، والتاريخ، وفي بعض الحالات الدين.
- **مقاربة ذاتية** (subjective)، تركز على الإرادة في عملية تشكيل الأمة، أي على اتجاه أفراد الأمة لرؤية أنفسهم كأمة أكثر منه توافرا أو عدم توافر عناصر موضوعية لذلك.

وفى حقيقة الأمر يتطلب تعريف مفهوم مركب كمفهوم القومية، تتداخل فى تكوينه كلا من العناصر الموضوعية والعناصر الذاتية، إستخدام كلا من المقاربتين. فعلى سبيل المثال يعرف جانوفسكى وجروشنى القومية بأنها "حالة عقلية، ونمط سلوكى كذلك. وهى، فى المقام الأول، نتاج للتفكير الإنسانى، مدرك حسى، أكثر منها وجود موضوعى. لكنه دائما ما يتجه نحو التحقق فى الواقع، نحو ترجمة مفاهيمه الفكرية إلى حقيقة موضوعية خارج الوعى الإنسانى. إنها، كذلك رؤية للتحقق الذاتى الجماعى تتوق الجماعة لتجسيدها. وهكذا، فإن القومية بناء أيديولوجى، وطريقة حياة عملية فى آن واحد. وغالبا ما تتلازم مقولاتها المجردة مع تأكيد عملى على إنجاز أهداف قومية فى الواقع الحقيقى. .... ولاشك أن الأيدولوجيا القومية فى حاجة إلى عناصر موضوعية قائمة خارج الوعى الإنسانى: أرض، عرق، لغة، نسب، دين، تاريخ، وماشابه. **ولكن بدون تدخل الوعى والإرادة الإنسانية، لا تقوم للقومية قائمة. فالعوامل الطبيعية هى مجرد مادة خام للقومية، والوعى والإرادة هما المحرك المسئول عن خلقها إستمرارها"** [5-3، ص. 13].

وإنطلاقا مما سبق نطرح التعريف الإجرائى Working Definition التالى لمفهوم القومية بوصفه:

> **"إدراك (وعى) أفراد جماعة بشرية بوجود رابطة معنوية بـ "تلمهم" فى كيان مشترك ذو ملامح خاصة تميزه عن الكيانات الأخرى. وتقوم هذه الرابطة المعنوية نتيجة لتراكم الخبرة التاريخية لتفاعل أفراد هذه الجماعة مع بيئتهم الطبيعية، من ناحية، ومع بيئتهم البشرية (الخارجية والداخلية) من ناحية أخرى. وتتجلى هذه الرابطة فى كل من منظومة القيم السائدة، ولغة التخاطب المحكية، والمنتجات الثقافية المتنوعة (أدب، فن، .....)."**

ويتميز هذا التعريف بإبرازه للعناصر الموضوعية المؤسسة للشعور القومى والتى يمكن إيجازها فى بعدين:

- **البعد الطبيعى،** الذى يتضمن أثر البيئة الطبيعية للمكان، موقعا وموضعا، على تكوين الشخصية القومية لسكان هذا المكان.
- **البعد البشرى،** الذى يتضمن أثر تفاعل أفراد الجماعة البشرية المستوطنة لبقعة ما مع بعضهم البعض من ناحية، وتفاعلهم مع الجماعات البشرية الأخرى من ناحية أخرى، على تكوين الشخصية القومية لهم.

هذا بالإضافة إلى تأكيده على الدور الذى تلعبه العناصر الذاتية، الوعى الإنسانى، فى إبراز وبلورة الشعورالقومى للجماعة.

ويؤدى هذا التعريف إلى تمييز الأطوار التالية التى يمر بها تطورالفكر القومى لدى جماعة ما:

- **مرحلة الكمون** (غيبة الوعى بالإنتماء للكيان المشترك على الرغم من توفر الشروط الموضوعية)
- **مرحلة التجلى** (الوعى بوجود الكيان المشترك وإدراك خصائصه المميزة)

حدوتة القومية المصرية بإختصار

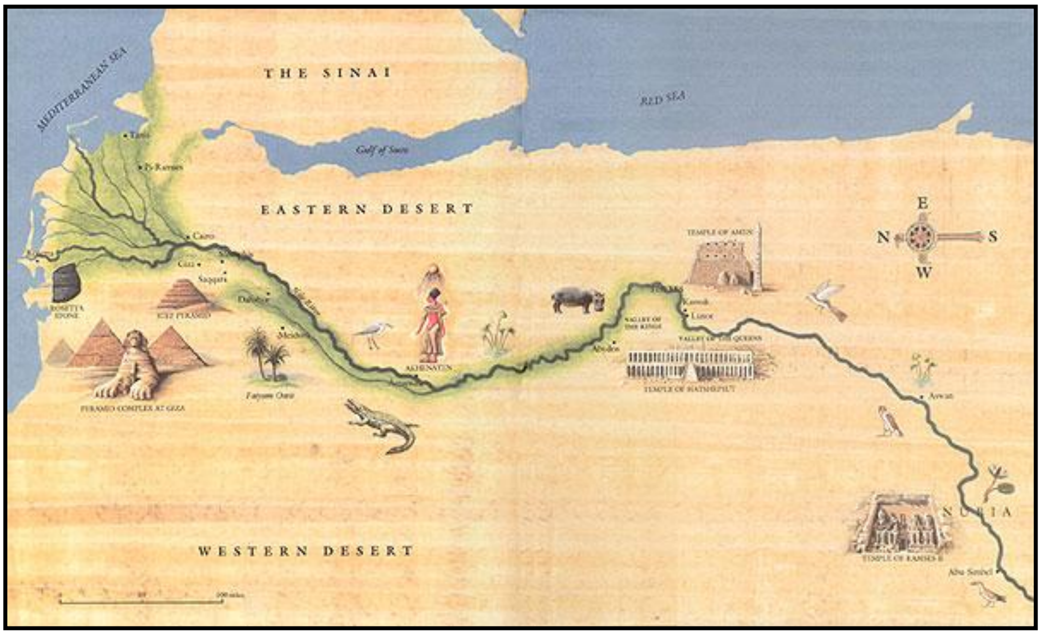
طور التكوين: ميلاد الأمة- الدولة

شكل المكان المصرى، موقعا وموضعا، البعد الطبيعى العناصر الموضوعية المؤسسة للقومية المصرية. فكان موقعه فريدا بتعدد إطلالاته على شمال أوروبى وجنوب إفريقى، وشرق عربى أسيوى وغرب عربى أوسطى. هكذا تحدثت الجغرافيا لنا فقالت أنه فى هذه البقعة من العالم قامت مصر **"الموقع"** بحدودها المعروفة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، عندما وحد مينا إقليم الشمال مع إقليم الجنوب، وهكذا تأسست الدولة المصرية الموحدة الذى لم تتغير حدودها منذ نشأتها الأولى وحتى يومنا هذا. وهكذا كانت سمة **"التحديد الجغرافى المتواصل"** للدولة المصرية سمة مصرية خالصة لم تحظ بمثلها أية دولة من دول العالم القديم أو الحديث. وهكذا عرف المصريون الحدود يوم أن كانت حدود الآخرين ملتصقة بخفاف إبلهم الباحثة عن مرعى أو تجرجرها سنابك خيولهم الساعية وراء غزوة، ويوم أن أصبحت تلك الحدود تقررها جغرافيا بنوك تأتيهم منها الأموال أو تحفظ لهم فيها الأرصدة. وهكذا كان مفهوما **"الوطن"** و**"المواطنة"** من أول وأهم الإكتشافات العبقرية التى أهدتها الأمة المصرية لحضارة الإنسان.



جمال حمدان
(1993-1928)

أما موضع الكيان المصرى فكان أرضا زاوجت بين الرمل والطين وكان فيها النيل الذى شكل البيئة المصرية التى يصفها جمال حمدان البيئة المصرية قائلا: "هى البيئة النهرية بإمتياز، وبالتحديد نموذج البيئة الفيضية المطلق، بل هى بكل سهولة "أكثر الفيضيات فيضية" فى الدنيا. فأكثر من أى بلد آخر، حياتها كلها هى النهر، لاوجه لها بدونه" [5-5، ص. 59). ويستطرد جمال حمدان قائلا " الحقيقة الأولى فى الوجود المصرى فى أن مصر هى النيل". فـ "النيل فى واقع الأمر ليس مجرد حقيقة جغرافية فقط، بل هو ضابط إيقاع الحياة فى مصر، فإذا كان النيل فى البداية حقيقة جغرافية أدت الى خلق هذا الكيان فى قلب الصحراء الكبرى، فإنه لم يلبث أن تحولا أن يكون الفيصل فى كافة جوانب الحياة فى مصر. والوجود المصرى هنا هو الإقتصاد والديانة والأدب والقانون والعلاقات الإجتماعية، وأخيرا وليس آخرا نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والمحكوم" [5-14، ص. 34-35).

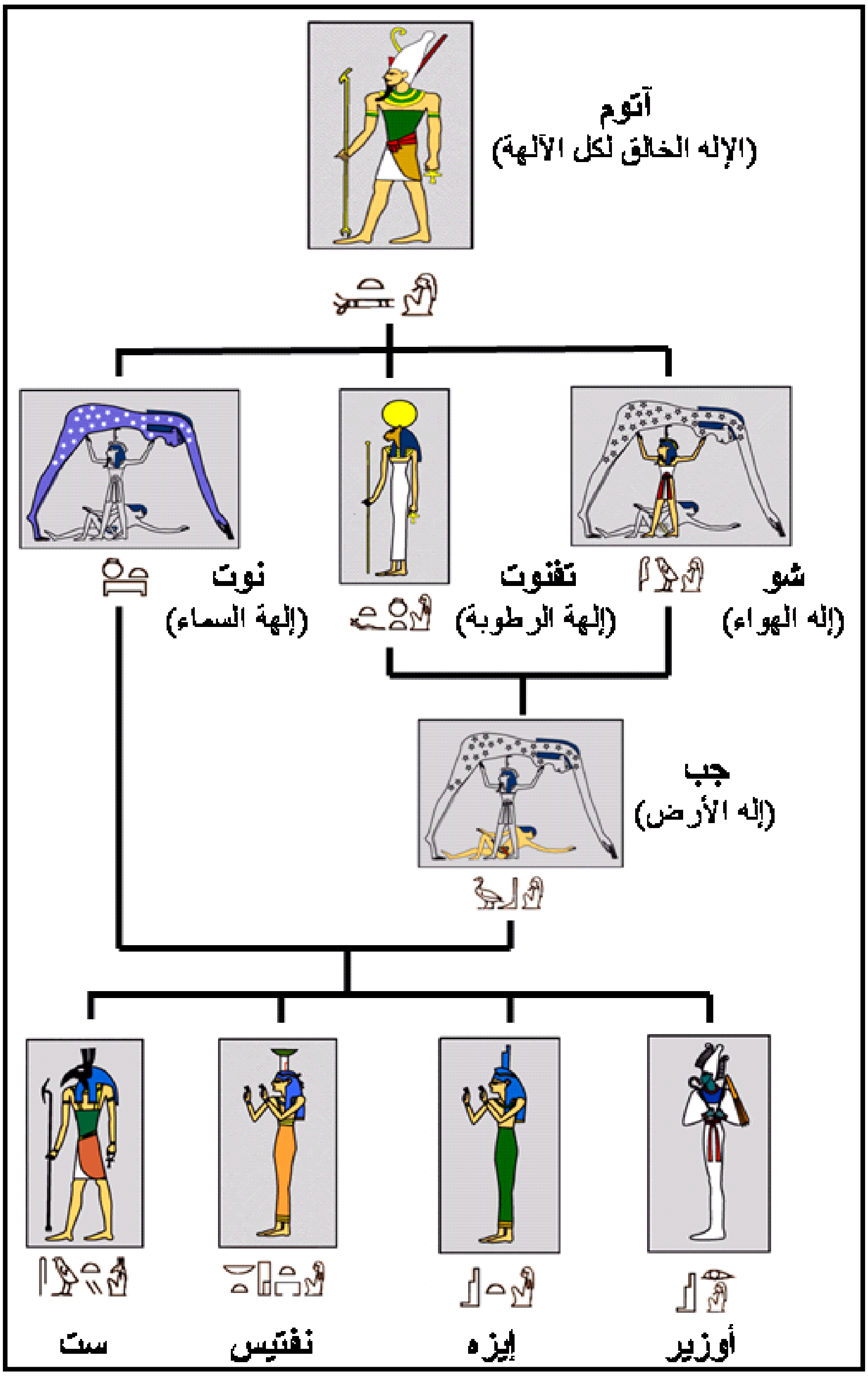


الكيان المصرى موقعا وموضعا

ولئن مثل تفاعل المصريين مع بيئتهم الطبيعية البعد الأول من أبعاد العناصر الموضوعية المؤسسة للشعور القومى (أو **البعد الطبيعى)**، فإن **"البعد البشرى"** يمثل البعد الثانى لتلك العناصر. ويتألف هذا البعد من مستويين يعنى أولهما بدراسة طبيعة العلاقة بين المكونات البشرية للأمة المصرية (العلاقات الداخلية)، ويعنى ثانيهما بدراسة العلاقة بين الجماعة المصرية والجماعات البشرية الأخرى خارج الموقع المصرى (العلاقات الخارجية).

ودراسة العلاقات الداخلية بين أفراد ومكونات الأمة المصرية تشى بالملمح الفريد الذى تمتعت به هذه الأمة وهو أن وحدتها البشرية ظلت متماسكة عبر تاريخها الطويل. فمنذ توحيدها فى الألف الثالث قبل الميلاد لم تعرف الأمة المصرية حروبا أهلية أو نزعات إنفصالية. ويذكر لنا التاريخ أن تعدد آلهة المصريين فى الزمان الأول لم يؤد إلى تقاتلهم، كما كان الحال عند شعوب أخرى، بل حولته الذهنية المصرية إلى منظومة مترابطة وإلى نظام يحفظ تعدد الأدوار وتناغمها فى إطار موحد هيأ تلك الذهنية لتقبل فكرة التوحيد. وهكذا ولدت أول أمة-دولة فى التاريخ.

الأمة-الدولة هو شكل محدد للدولة (كيان سياسى وقانونى) التى تقوم وظيفتها وتستمد شرعيتها من قدرتها على الحفاظ على الحدود المستقلة لأفراد أمة (كيان إجتماعى وثقافى) بعينها.



شكل مبسط لمنظومة الآلهة فى مصر القديمة

وإتسمت العلاقة بين الجماعة المصرية والجماعات البشرية الأخرى خارج الموقع المصرى بوجود نمطان رئيسيان. النمط الأول هو تجسيد نموذجى لعلاقة الرمل بالطين أو لعلاقة الرعاة بالزراع أو لـ **"علاقة الجراد بالزرع الأخضر"**. فلقد شهدت مصر عبر تاريخها الطويل هجمات **"أمم الرعاة"** (البدو) بدءا بالهكسوس فى القرن السادس عشر قبل الميلاد (حوالى 1670 ق.م) وإنتهاءا ببنى عثمان فى القرن السادس عشر الميلادى (1515 م) ومرورا بالعرب فى القرن السابع الميلادى

(640 م). ويميز هذا النمط ملمحان أولهما هو تدنى المستوى الحضارى للغزاة بالمقارنة مع مستوى الأمة المصرية. أما ثانى هذه الملامح فهو قدومها من الشرق عبر شبه جزيرة سيناء. أما النمط الثانى فهو هجمات **"أمم البحر"** على مصر بدءا من الإغريق فى القرن الثالث قبل الميلاد (332 ق.م) وإنتهاءا بالإنجليز فى القرن التاسع عشر (1882 م) ومرورا بالرومان فى القرن الأول قبل الميلاد (30 ق.م) والفرنسيين فى القرن الثامن عشر (1798 م). وقد تميز هذا النمط بتقارب المستوى الحضارى بين الأمم الغازية والأمة المصرية وذلك فى أشكاله القديمة (الإغريق والرومان) وبإرتفاع هذا المستوى عن مثيله فى الأمة المصرية فى أشكاله الحديثة (الفرنسيين والإنجليز). أما الملمح الثانى الذى ميز هذا النمط فهو قدومه من الشمال عبر البحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم من تعاقب الغزاة فلقد تميز تاريخ الأمة المصرية بملمح فريد هو نزوعها إلى الإستقلال سواء كانت محكومة بواسطة أبناءها أو بواسطة الغرباء. فمصر، عبر تاريخها المكتوب البالغ 5155 سنة، كانت مستقلة لفترة 3653 سنة أى مايساوى لسبعين فى المائة من تاريخها المكتوب.

وأخيرا ننظر إلى التاريخ، **"تاريخ شعب مصر"**، لاتاريخ غزاته من فرس وروم وعرب وأتراك، فنجده يقول لنا أنه نشأت فى مصرالموقع أمة حرفتها **"صنع الحضارة"**، على حد قول د. حسين فوزى أحد رواد القومية المصرية الأوائل. أمة من الزراع والبنائين والصناع إحترف أبناؤها مهنة ترويض النهر وزرع الأرض التى أشبع نتاجها بطون النهابين الغزاة. أمة إحترف أبناؤها مهنة العمارة فشيدوا الأهرام والكرنك ودير المحرق وجامع السلطان حسن. فلم تكن الأمة المصرية، عبر تاريخها الطويل، أمة حرب تقوم حياتها على غزو الآخرين ونهب خيراتهم وعلى التباهى بتلك الغزوات وعلى التباكى على مافقدوه من أراض إغتصبوها عنوة من أصحابها بحد السيف. ولم تكن الأمة المصرية أمة من التجار تسترزق من عمل الآخرين بل كانت ولاتزال أمة تقوم على عمل أبنائها وكدهم.

هذا هو تاريخ الأمة المصرية التى إبتدعت منذ بداياتها الأولى مفهوم **"الوطن"** الذى ينتمى إليه كل أفرادها ويدينون له بالولاء فتجازت بذلك ضيق الإنتماء إلى القبيلة والعشيرة الذى مازال يحكم سلوك مايجاورها من الأمم.

إنه التاريخ الذى تتجلى آثاره حية فى لغتنا المصرية المعاصرة وفى عادات وتقاليد المصريين. فلغة حديثنا اليومى، التى تختلف تراكيبها اللغوية والكثير من مفراداتها عن اللغة العربية الكلاسيكية، ليت إلا **"التعبير اللغوى"** عن خصوصيات الأمة المصرية التى تشكلت عبر تاريخها الطويل.

الغيبة

تعرضت الأمة المصرية للحظتين فارقتين أدتا إلى مفارقة الشعب المصرى لهويته الخاصة به وإلى دفع وعيه بذاته المستقلة والمغايرة للآخرين إلى أعماق لاشعوره الجمعى. لحظة إعتناقه المسحية على أيدى مرقص الرسول الذى قدم إلى أرض مصرحوالى 40 م ولحظة غزو العرب لمصر سنة 640 م.

المفارقة الأولى

وكانت البداية الحزينة لطمس الشعور القومى المصرى عندما إعتنق شعب مصر المسيحية وآمن بكتباها المقدس بعهيديه القديم والحديث. وكان للصورة المشوهة والمشوهة (بكسر الواو) للمصريين وحكامهم فى أسفار العهد القديم آثار مدمرة على إحساس المصريون بذواتهم وإعتزازهم بها. فبعد أن كان شعب مصر (الناس) هم ""**الرعية النبيلة"** ... **"رعية الإله رع"** وكان الناس (**رمثو**) **"شعب الشمس"** ... **"أبناء رع آتون"** ... **"كلماتهم نافذة وشفاهم عارفة وحكمتهم بلغت عنان السماء"،** وكانت مصر **"تاميرى"** ... **"صورة السماء"** و **"معبد الكون بأسره ومقر الديانات""** أصبح شعب مصر وأصبحت أرضها هدفا لضربات رب العبرانيين. فها هو **"سفر الخروج"** يصف لنا بعض ماحاق بالمصريين:

"وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عُيُونِ عَبِيدِهِ فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَماً. 21 وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ." 22 (الأَصْحَاحُ السَّابِعُ)

"مَدَّ هَارُونُ يَدَهُ بِعَصَاهُ وَضَرَبَ تُرَابَ الأَرْضِ فَصَارَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ. كُلُّ تُرَابِ الأَرْضِ صَارَ بَعُوضاً فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ. " 18 (الأَصْحَاحُ الثَّامِنُ).

"فَفَعَلَ الرَّبُّ هَذَا الأَمْرَ فِي الْغَدِ. فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. وَأَمَّا مَوَاشِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَاحِدٌ. " 7 (الأَصْحَاحُ التَّاسِعُ).

"فَأَعْطَى الرَّبُّ رُعُوداً وَبَرَداً وَجَرَتْ نَارٌ عَلَى الأَرْضِ وَأَمْطَرَ الرَّبُّ بَرَداً عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. 24 فَكَانَ بَرَدٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ فِي وَسَطِ الْبَرَدِ. شَيْءٌ عَظِيمٌ جِدّاً لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مُنْذُ صَارَتْ أُمَّةً! 25 فَضَرَبَ الْبَرَدُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ." (الأَصْحَاحُ التَّاسِعُ).

"وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ حَمَلَتِ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ الْجَرَادَ 14 فَصَعِدَ الْجَرَادُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ وَحَلَّ فِي جَمِيعِ تُخُومِ مِصْرَ. شَيْءٌ ثَقِيلٌ جِدّاً لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ جَرَادٌ هَكَذَا مِثْلَهُ وَلاَ يَكُونُ بَعْدَهُ كَذَلِكَ 15 وَغَطَّى وَجْهَ كُلِّ الأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتِ الأَرْضُ. وَأَكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الأَرْضِ وَجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ الَّذِي تَرَكَهُ الْبَرَدُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ أَخْضَرُ فِي الشَّجَرِ وَلاَ فِي عُشْبِ الْحَقْلِ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. " 16 (اَلأَصْحَاحُ الْعَاشِرُ).

"فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى وَكُلُّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ. 6 وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ وَلاَ يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضاً. " 7 (الأَصْحَاحُ الْحَادِي عَشَرَ).

وبعد أن كان **"بر-عو"** (البيت الكبير أو فرعون) مصر هو **"العائش فى ماعت"**، أى الذى تتجسد فيه ماعت والتى تعنى الحقيقة والنظام والعدالة فى آن واحد [5-2]، أصبح من منظور الدين الجديد حاكما ظالما لايستحق من المؤمنين به إلا أشد اللعنات.

وهكذا حدثت المفارقة الأولى بين المصريين وتاريخهم. وهكذا بدأت **"قومية الدين"** تحل محل **"قومية الوطن"** وأصبح الأجنبى المسيحى أقرب للمصرى من رفيقه فى الوطن الذى يؤمن بـ "سيرابيس" أو يقدس الأم المباركة "إيزه". ولعل ماخفف من وطأة هذه الكسرة هو قرب المصريون من تاريخهم وإستمرارهم فى إستخدام لغتهم وان تغيرت حروفها إلى حروف اللغة اليونانية. ولعل ظهور الكنيسة القومية المصرية المستقلة (الكنيسة المرقسية) كان تجسيدا لقومية الوطن التى توارت من السطح لتستقر كامنة فى أعماق الشعور الجمعى للمصريين.

المفارقة الثانية

وكانت المفارقة الثانية عندما غزا العرب مصر وإحتلوها (أو "فتحوها" طبقا لما هو سائد من مصطلحات ملتبسة المعنى). وكانت هذه الغزوة أشد وطأة على المصريين مما سبقها من غزوات فلم

يكتف الغزاة هذه المرة بـ "نزح" خيرات مصر إلى باديتهم الجرداء بشكل غير مسبوق (ولعل شطر بيت الشعر **"مص الغصن لخضر ونحت عضم العيدان"** لأحمد فؤاد نجم فى قصيدته "كلمتين لمصر" يصور هذا الوضع أبلغ تصوير) بل إستجلبوا قبائلهم لتستوطن أرض مصر وتزاحم أهلها فى أرزاقهم (وهو الأمر الذى تطلق عليه أدبيات العلوم السياسية المعاصرة لفظة **"إستعمار إستيطانى"**). كما فاقت عنصرية الغزاة الجدد عنصرية من سبقهم فأصبح من هو ليس عربيا ينظر اليه نظرة دونية حتى وإن إعتنق الإسلام وأصبح من "المسالمة".

وليس وصف حال مصر بعد أن غزاها العرب من عندياتنا. فهاهو الطبرى يحكى لنا بعضا مما حدث أثناء عام المجاعة التى حلت بالجزيرة العربية فيقول: "وجاء كتاب عمرو بن العاص جواب كتاب عمر فى الإستغاثة: إن البحر الشامى حُفر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيرا، فصب فى بحر العرب، فسده الروم والقبط، فإن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره فى مصر، حفرت له نهرا وبنيت له قناطر. فكتب إليه عمر: أن افعل وعجل ذلك، فقال له أهل مصر خراجك زاج [1]، وأميرك راض، وإن تم ذلك انكسر الخراج. فكتب إلى عمر بذلك، وذكر أن فيه انكسار خراج مصر وخرابها. فكتب إليه عمر: اعمل فيه وعجل، **أخرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها"** [5-8، ص. 100]. أما إبن أياس فيمضى قائلا: **"**فلما ولي الإمام عثمان الولاية، ولى عبد الله بن أبى سرح على مصر، فلما ولي أظهر له نتيجة فى خراج مصر وأورد له أربعة ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمرو بن العاص: **"لقد درت اللقحة بعدك يا أبا عبد الله بأكثر من درها الأول"**. فقال عمرو: **"نعم، ولكنها أجاعت أولادها"**. فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر فى مبتدأ الإسلام" [5-1، ص. 113]. ولم يكن قد مضى على غزو العرب لمصر إلا ست سنوات عندما دار هذا الحوار بين ثالث الخلفاء الراشدين وواليه السابق عليها. وتهل سنة 96 هـ (715 م) ويكتب الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك إلى متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي قائلا: **"إحلب الدر حتى ينقطع وإحلب الدم حتى ينشرم"** [5-17، ص. 88]. وجاءتنا الأخبار عن معاوية بن ابى سفيان أنه قال: **"وجدت مصر ثلاثة أصناف، فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. أما الذين هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى، والثلث الذين لا ناس المسالمة" ... يعنى القبط** (المصريين من مسلمين ومسيحيين كما كان يطلق عليهم) [5-17، ص. 118].

[1] أى تيسرت جبايته

وللمرة الثانية تحدث مفارقة بين المصريين وتاريخهم إذ أكد ماجاء فى القرآن الكريم على ماذكره "العهد القديم" عنهم وعن حكامهم من الفراعين:

"**(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** 3 **(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)** 4" .... **(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)** 39 **(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)** 40" (القصص)

"**(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** 90 **(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)** 91 **(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)** 92" (يونس)

"**(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)** 54" (الزخرف)

"**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)** 130 ... **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ)** 133" (الأعراف)

ومرة أخرى تتأكد أسبقية **"قومية الدين"** على **"قومية الوطن"** ليصبح الأجنبى المسلم أقرب للمصرى من رفيقه فى الوطن الذى يؤمن بالسيد المسيح

و ما أن يحل القرن الرابع عشر حتى تسود اللغة العربية فتتبناها الكنيسة القومية المصرية وينحسر إستخدام اللغة القبطية آخر مايربط المصريين بماضيهم الأول. ولكنها، قبل إنحسارها تترك بصماتها الواضحة على مفردات وقواعد لغة المصريين المحكية.

عودة الوعى (أو الخروج الى وضح النهار)

الطلق (آلام المخاض)

على الرغم من وطأة القرون الطويلة لعصر الغيبة فإن العناصر الموضوعية المؤسسة للأمة المصرية ظلت فاعلة فعلها فى الحفاظ على الشعور القومى حيا فى لاوعى المصريين. ففعل البيئة الطبيعية الحاضنة، نهر النيل بواديه الأخضر الذى تغلفه الصحارى وفيضانه الدورى المنتظم، ظل مستمرا بلا إنقطاع. أما فعل البيئة البشرية فتوجزه معادلة بسيطة: إستغلال حاكم مصر الأجنبى لسكان الوادى من الفلاحين... المكون الرئيسى للأمة المصرية. وشواهد هذه الإستمرارية عديدة لنراها فى إستمرارية منظومة القيم، قيم الزارع **"الفلاح القرارى"** ، ونراها فى ميلاد وشيوع إستخدام اللغة المصرية الحديثة (العامية المصرية) على مستوى التخاطب وعلى مستوى الكتابة.

فعلى سبيل المثال بدأ إستخدامها فى العديد من نصوص العصر المملوكى (1250-1517) المكتوبة. فرأينا كتابات إبن دانيال فى القرن الرابع عشر، ورأينا كتابات إبن سودون فى القرن الخامس عشر وكتابات إبن أياس فى السادس عشر [5-7، ص 200]. ومأن يهل القرن السابع عشر حتى تبدأ بشائر الوعى فى الظهور فيشيع إستخدام اللغة العامية بصيغها ومفرداتها فى الكتابة وهو مايعنى "أن ثمة جرعة من الثقافة المحلية فرضت وجودها فى عالم الكتابة فى مواجهة الثقافة "العثمانية" الإقليمية، أو الثقافة "الإسلامية" ذات الطابع العالمى" [5-7، ص 195]. وهكذا رأينا ظهور "قاموس العامية القاهرية" للشيخ يوسف المغربى فى أوئل القرن السابع عشر (سنة 1610) ورأينا كتاب "هز القحوف فى شرح قصيدة أبوشادوف" ليوسف الشربينى فى نهايته. وكان هذا الكتاب "كتابا فريدا، لأنه عالج فى المقام الأول، مجتمع الفلاحين فى الدلتا بمصر، ولأنه كتب بالعامية ... ولم يكن هذا التفرد قاصرا على مصر وحدها، بل وفى غيرها من بلاد العالم. ففى القرن السابع عسر لم تكن هناك كتب فى الشرق الأوسط أو العالم العثمانى أو أوروبا تخصص لتناول أمور الفلاحين وحدهم" [5-7، ص 189].

الميلاد الثانى

ويأتى عام 1805 بواقعة غير مسبوقة فى ولايات إمبراطورية بنى عثمان. ففى هذا العام نجح مشايخ مصر وأعيانها فى عزل الوالى المعين من قبل السلطان العثمانى، خورشيد باشا، وتولية محمد على بدلا منه مخاطبينه قائلين "لانرضى الا بك وتكون والى علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير". ويحكم الوالى المنتخب الديار المصرية ويتخذها قاعدة لبناء إمبراطوريته

الجديدة. وهى الإمبراطورية التى تثير مخاوف القوى العظمى فى عصره فتجبره على توقيع معاهدة لندن سنة 1840 لتحصر ملكه فى أرض مصر التاريخية. وتعتبر د. أمنة حجازى أن معاهدة لندن، وعندها حق، بمثابة إعادة خلق "الأمة المصرية" حيث مكنت من أن تصبح أول دويلة من دوليات الدولة العثمانية يكون لها حدود متعارف عليها" [5-4، ص 511].

ولعل أعظم إنجازات هذه المرحلة هو بدء التواصل الخلاق بين المصريين من جهة وأوروبا من جهة أخرى والذى كان من أهم نتائجه رفاعة رافع الطهطاوى. وكان هذا الشيخ الأزهرى إبن صعيد مصر وأبو التنوير فى مصر الحديثة، هو أول المبشرين بمفهوم الوطن وكان الجد الروحى للميلاد الثانى للقومية المصرية. فها هو يقول عن وطنه مصر "قد تحقق فى مصر إسمها بالمعنى المتعارف أكثر من غيرها... وماذاك إلا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى إتساع دائرة تقدمها فى التأنس الإنسانى والعمران وإحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان..." [5-12، ص7). و"أن مصر إشتهرت فى جميع الأعصر والقرون وكانت فى زمن الفراعنة معاصرة لأعظم ممالك الدنيا" [5-9، ص 221) . وها هو يسك لفظة **"أم الدنيا"** ليصف مصر قائلا: "فإذا أبدينا محاسن أم الدنيا والنعمة التى هى كنانة الله فى أرضه ظهر لنا أنها تعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه وأنه أحق أن تحن إليه نفوس مفارقيه من ذويه" [5-10، ص 91].

لقد مهدت هذه الكلمات وغيرها الطريق أمام أبنائه وأحفاده ليعيدوا إكتشاف وعيهم بقوميتهم الكامنة. ففى سنة 1902 أصدر محمد عمر، المستخدم بمصلحة البوستة المصرية، كتابا بعنوان "حاضر المصريين أو سر تأخرهم" ليعرف فيه الوطنية (القومية) المصرية بأنها "الشعور الذاتى برابطة الإنتساب التى تجمع بين الإنسان ووطنه من يشترك معه فى هذه النسبة أى بوحدة مصلحة الطرفين ولضرورة السعى فى رفعته وتقويته والذوذ عنه" [5-13، ص 183). أما أمين حمدى فيعرفها فى كتابه "الحياة القومية" الصادر سنة 1914 بأنها "روح تسرى فى الروابط الإجتماعية بين أفراد الأمة الواحدة تجعل لها شخصية مستقلة عن غيرها من الأمم الاخرى وشعارات تمتاز بها عن شعائر الأقوام" [5-6، ص 4].

القومية المصرية ... لماذا؟

والآن يحين وقت الإجابة عن تساؤل برجماتى (نفعى) ومشروع وهو **"ماهى الأهمية العملية المرتجاة من وراء إبراز وإعادة إحياء مفهوم "القومية المصرية" فى عصر العولمة؟** ولإجابة هذا

السؤال أربعة محاور هى: القومية كثقافة لوحدة الوطن، وكطاقة معنوية كامنة، وكخريطة طريق لتحديد الأولويات، وكأداة لـ "موضعة المتعولم" و "عولمة المتموضع".

القومية المصرية كثقافة لوحدة الوطن

و"**ثقافة القومية المصرية**" هى "**ثقافة الوطن**"، بما تعنيه من إنفتاح على الآخر وإستيعاب له فى شركة الأرض والحياة، فى مقابل "**ثقافة الملة**"، بما تنطوى عليه من إنغلاق على الذات وإستكبار على مشاعر الآخر وتجاهل لإحتياجاته. فلقد شهد وطننا فى العقود الأخيرة العديد من حوادث التوتر الطائفى التى تباينت أشكالها من ملصقات وكتب وأحاديث، إلى أشكال أكثر عنفا كإحراق لدور عبادة أو عمليات سطو أو إعتداءات مسلحة أو تصفيات جسدية. وقد شكلت هذه الحوادث فى مجموعها ظاهرة أطلق عليها إسم "الفتنة الطائفية" "الإحتقان الطائفى". وقد تصدى العديد من كتابنا ومثقفينا لتحليل هذه الظاهرة ولبيان أسبابها متبعين فى ذلك مناهج تفسير متباينة ينظر كل منها إلى أحد جوانبها. فرأينا البعض وهو يرجعها إما لظروف إقتصادية أو سياسية، محلية أو عالمية، أو لظروف إجتماعية. ورأينا نفرا آخر برجعها إلى حصيلة هذه الظروف مجتمعة. وأخيرا رأينا نفرا قليلا يلقى بعض الضوء على جوانبها الثقافية. ومع تسليمنا بصحة أغلب مأسفرت عنه هذه المناهج من أسباب، إلا أن إستمرار تلك الأحداث وتصاعد حدتها على مدى الثلاثين سنة الأخيرة يدفعنا إلى تبنى منهج تفسير جديد يسهم فى إستكمال جوانب تحليل هذه الظاهرة، محاولا التمييز بين أسبابها الكامنة وأسبابها الظاهرة، وساعيا للكشف عن طبيعة الثقافة التى تحكم وتوجه سلوك المشاركين فيها. منهج ينظر إلى ماوراء الأسباب العارضة، ويتجاوز الأساطير الفكرية الشائعة، ويواجه بشجاعة وصراحة لب الأمور. والبداية هى سؤال نطرحه لتساعدنا الإجابة عنه على تلمس الطريق. والسؤال هو: هل لهذه من نظير فى تاريخنا الوسيط والحديث؟

وتأتينا الإجابة قاطعة من النظرة الفاحصة والمدققة لتاريخنا بأن حدوث مثل هذه ليس بالشيئ الجديد عليه. فهاهى كتابات مؤرخينا، بدءا بالمقريزى وإنتهاءا بالجبرتى ومرورا بإبن أياس، تشهد بتكرار حدوثها من حين لآخر. لذا فإن ظاهرة الفتنة الطائفية لايمكن فهمها، ومن ثم علاجها، بمعزل عن السياق التاريخى لتطور الأمة. وفى هذا مايدفعنا إلى القول بأن الدور الذى لعبته الظروف الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، مجتمعة أو كل على حدة، لم يكن فى حقيقة الأمر إلا تهيئة المناخ لإظهار ماهو مستقر فى أعماق اللاشعور من بقايا ثقافة مغلوطة ومشوهة تحكم سلوك بعض المصريين تجاه بعضهم الآخر. وهى ثقافة تشكلت عبر قرون كنتاج طبيعى لممارسات غاشمة لحكام غرباء، ولتفسيرات مغلوطة للنصوص المقدسة أفرزتها مجتمعات منغلقة على نفسها خاصمت سنة التطور،

ولنقص فى الوعى بتاريخ الأمة وبمفهومى الوطن والمواطنة. وهى ثقافة مازالت بقاياها حية تمارس تأثيرها المسموم حتى يومنا هذا. ولعل أبرز عناصر هذه الثقافة هذين العنصرين اللذان يتمثلان فى:

- النظرة التجزيئية/التقطيعية لتاريخ الأمة
- الرؤية أحادية البعد للكيان المصرى

فتلك الثقافة تنظر إلى تاريخ الوطن وكأنه سلسلة من الحقب المنفصلة عن بعضها البعض، فكل منها مقطوع الصلة بمن يسبقه ولاتأثير لأى منها على مايعقبه. وهى بذلك تهمل، إهمالا مريبا، عناصر الإستمرارية والتواصل فى تاريخنا الطويل. وهى العناصر التى ترتكز على المقومات المؤسسة والثابتة للأمة المصرية بدءا من الموقع بإطلالته على البحرين وإمتداده عبر القارتين وإنتهاءا بالموضع بنيله وواديه. وهكذا يختزل تاريخنا، من منظور هذه الثقافة، إلى حقبة واحدة ويقتطع من تاريخ هذه الأمة أكثر من ثلثيه ليصبح بذلك شأن أقدم كشأن أحدثها ظهورا وتكوينا ... ! ...

ومكمن الخطورة فى هذه النظرة أنها تفضى إلى الرؤية أحادية البعد للكيان المصرى. وهو الكيان الذى نشأت شخصيته وتطورت عبر مئات القرون كمحصلة لتفاعل حضارات مختلفة، فرعونية ويونانية وقبطية وإسلامية وحديثة، تمثلتها الأمة وهضمتها لتفرز خصوصيتها المتميزة. فقد قال قائل، وقد صدق، **"إن مصر وثيقة من جلد الرق، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيرودت، وفوق ذلك القرآن، وخلف الجميع لاتزال الكتابة القديمة مقروءة جلية"**. فهكذا تشكل الكيان المصرى لتكون شخصيته شخصية مركبة ومتعددة الأبعاد، ولكن فى وحدة وتكامل غير منقوصين. وهذا التعدد هو فى حقيقة الأمر هو رصيد قوتها الكامنة والمتجددة، وهو سر قدرتها على البقاء وتجاوز الأزمات، وهو محرك آلياتها للإبداع وللتكيف مع الجديد. وأى رؤية تختزل أبعاد هذه الشخصية ليست فى نهاية الأمر إلا خصما من هذا الرصيد.

إن آثار النظرة هذه النظرة المنقوصة لاترال تفعل فعلها على العديد من المستويات. فعلى مستوى القول والفعل نراها تتجسد فى حوادث التوتر الطائفى بشتى صورها. أما على مستوى علاقة البعض بالبعض الآخر فنراها وقد راحت تنشئ حدودا نفسية مصطنعة بين أعضاء جسد أمة واحدة. فهى من ناحية تحد من قدرة البعض على الإقتراب من الآخر سعيا وراء تفهم همه الذاتى. وهى من ناحية أخرى تدفع بالآخر إلى الهروب إما داخليا بالإنكفاءعلى الذات أو خارجيا بهجر الوطن. وهى فوق كل ذلك تجعله يحجم عن المكاشفة والمصارحة بهمه الذاتى.

القومية المصرية كطاقة معنوية كامنة

أما "القومية المصرية" كطاقة معنوية كامنة Potential Energy فأبرز مثال لها ماحدث فى عشرينات القرن العشرين عندما بدأت هذه الطاقة فى التبلور والظهور فكانت ثورة 1919، وكان المناخ المواتى للإبداعات المصرية فى الفكر وفى الفن والأدب فكان أحمد لطفى السيد، وكان طه حسين، وكان محمود مختار باعث فن النحت المصرى الحديث، وكانت موسيقى سيد درويش التى عبرت عن روح المصريين. واليوم ونحن فى بدايات القرن الواحد والعشرين ماأحوجنا إلى إعادة إظهار هذه الطاقة الكامنة وتحويلها، حسب قوانين الفيزياء، إلى ديناميكا جديدة للفعل والحركة.

القومية المصرية كإطار مفاهيمى

و"القومية المصرية" كخريطة طريق لتحديد الأولويات ليست إلا التعبير الحى عن حكمة شعبنا التى أودعها فى قوله المأثور **"اللى يعوزه البيت يحرم على الجامع"** وتهكم على من يخرج عليه قائلا **"فاتت إبنها يعيط وراحت تسكت إبن الجيران"**.

ولتفهم الدور الذى يمكن أن تلعبه "القومية المصرية" فى مسيرة إصلاح الوطن سنستعين بواحدة من أدوات التفكير العلمى تعرف بـ **"الإطار المفاهيمى"** Conceptual Framework الذى يعرفه الباحثون فى العلوم الإجتماعية بأنه ***"مجموعة من المفاهيم المشتقة من حقائق متفق عليها أو المرتكزة على مشاهدات موثوق بها والتى ترتبط مع بعضها البعض لتشكل منظومة متكاملة تمثل الظاهرة الإجتماعية موضوع الدراسة***". وفى العادة يستخدم العلماء هذا الإطار كـ "خريطة طريق" لدراسة الظواهر الإجتماعية وذلك من خلال إستخدام المفاهيم المتضمنة فيه لبناء

- **نماذج وصفية** Descriptive Models تصف الظاهرة فى وضعها الحالى
- **نماذج تنبؤية** Predictive Models تتنبأ بسلوكها المستقبلى،
- **نماذج إرشادية** (أو **توجيهية**) Prospective Models تبين كيفية التعامل معها والتأثير فيها.

من هذا المنطلق يمكن إعتبار "القومية المصرية" كإطار مفاهيمى يتيح لنا إشتقاق نماذج إرشادية تصف ماينبغى عمله لإصلاح أحوال الأمة المصرية. والقومية المصرية إطار مفاهيمى تتضمن مجموعة من المفاهيم التى لاأتصور أن أحدا يجادل فى صحتها:

- المفهوم الأول "**وحدة الأرض**"
- المفهوم الثانى "**تجانس البشر**"
- المفهوم الثالث "**خصوصية الضمير**"

- المفهوم الرابع **"تفرد التعبير"**

وحدة الأرض

تعبر **"مصرالأرض"** نموذجا فريدا لم ولن يتكرر لـ **"الثبات الجغرافى"**. فمنذ عصر الإتحاد الثالث بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب على يد الفرعون المصرى مينا وحدود الديار المصرية لم تتغير من سيناء شرقا إلى السلوم غربا ومن المتوسط شمالا إلى أرض النوبة جنوبا.

تجانس البشر

تعيش على أرض مصر مجموعة من البشر، الأمة المصرية، تتميز بتجانس عرقى ملحوظ. وهو التجانس الذى لم تفلح حركات الإستيطان العربية التى أعقبت الغزو العربى فى تغييره. لقد نجحت الكتلة البشرية المصرية عبر تاريخها الممتد آلاف السنين فى إمتصاص وهضم كافة العناصر غير المصرية التى إستوطنت مصر وأقامت على أرضها. وهو الأمر الذى عبر عنه د. جمال حمدان فى دراسته الموسوعية "شخصية مصر" بقوله "منذ فجر التاريخ يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل متجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسمية. وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم دون أن حدث أى إبتعادات ملموسة عن النمط الأول أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة" (الجزء الثانى، ص 278).

ولعل الدراسة العلمية لجزيئات الحمض الأمينى للعمال الذين شاركوا فى بناء أهرامات الجيزة بتلك الخاصة بالمصريين المعاصريين أبلغ دليل على هذا النجاح (عن البرنامج التليفزيونى الوثائقى الذى أذاعته قناة ديسكفرى الكندية خريف عام 2003 بمناسبة إكتشاف قرية العمال المشاركين فى بناء الأهرام).

خصوصية الضمير

لقد خاضت الأمة المصرية عبر تاريخها الألفى تجربة إنسانية فريدة أسهمت فى تشكيل الوجدان المصرى على نحو مغاير لما حدث فى الأمم المجاورة. فلم تعتمد هذه الأمة فى معاشها على الإستيلاء على ثروات الآخرين ولم تستحل خيراتهم تحت أى ستار فكرى أوعقائدى كما فعلت أمم أخرى. وعبرت الأمثال الشعبية للمصريين أصدق تعبير عن هذه التوجهات. فنراهم يقولون **"إزرع كل يوم تاكل كل يوم"** و**"إعمل بخمسة وحاسب البطال"** و**"الإيد التعبانة شبعانة"**. وكما خلت أمثالهم من كلمات مثل "إغز" و "إنهب" نراها تحتفى بالإستقرار والتوطن فنراهم يقولون **"من فات داره**

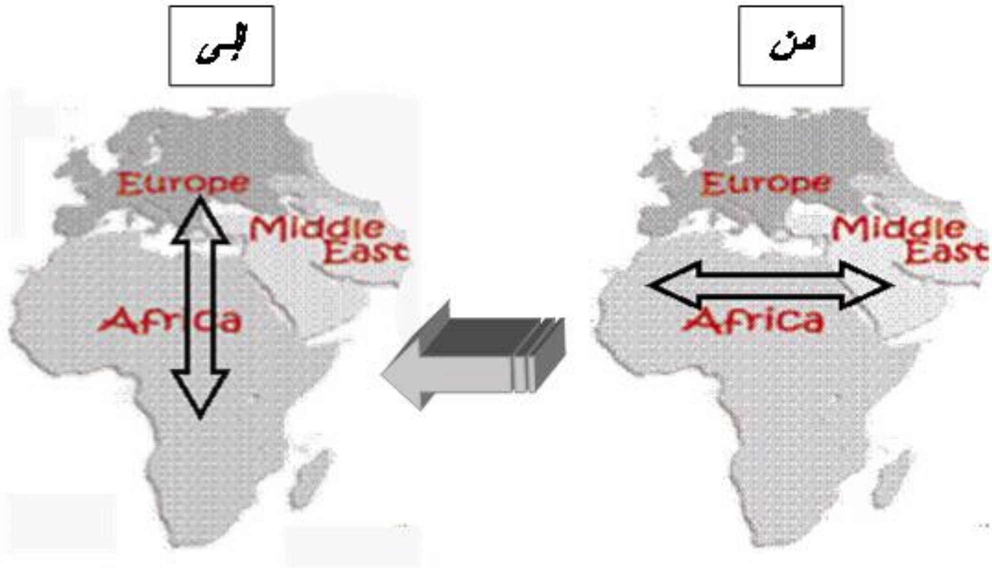
إتقل مقداره" و **"مانبنا من غربتنا إلا عوجة ضبطنا"**.

ولقد أدى التاريخ الأسود للنهب المستمر وغير الإنسانى لخيرات مصر على أيدى مغتصبيها من الأجانب إلى قناعة المصريين بأن "خيرها لغيرها" وإلى شكهم وريبتهم تجاه أى فعل أو تصرف يصدر عن ممثلى السلطة الحاكمة. ومما فاقم من هذا الشعور الإرتيابى فى مصرنا المعاصرة هذا السلوك المتعالى الذى يبديه ممثلوا السلطة، بدءا من شرطى صغير وإنتهاءا بمسئول كبير، أثناء تعاملهم مع بسطاء المصريين.

تفرد التعبير

يستخدم المصريون المعاصرون فى حياتهم لغة خاصة بهم وبهم وحدهم، بكل ماتضمنه كلمة لغة من مفاهيم وماتعنيه من وظائف، هى "اللغة المصرية الحديثة". وهى لغة وان كان الجزء الأكبر من مفرداتها مستعار من اللغة العربية الا أن قواعد نحوها تختلف اختلافا جوهريا عن قواعد تلك اللغةز هذا بالاضافة الى ماتحتويه من مفردات اللغة المصرية القديمة التى تمثل مايزيد عن 25% من مجمل مفرداتها.

إن الإطار المفاهيمى الذى تقدمه لنا "القومية المصرية" يتيح لنا إشتقاق مجموعة من النماذج الإرشادية وأول هذه النماذج هو **"النموذج الإرشادى للأهداف القومية للأمة المصرية"** بما يعنيه هذا النموذج من ترتيب لأولوياتها من منظور مصرى خالص. إن تطبيق هذا النموذج يعنى، من ضمن مايعنيه، تدوير محور ترتيب أولويات توجهات السياسة الخارجية من وضعه الحالى الممتد شرقا ليصبح ممتدا شمالا وجنوبا. ففى الجنوب تقع مصادر النيل، شريان حياة مصر، لذا يصبح تأمين موارد مصر المائية وترشيد إستخدامها بكافة السبل ضرورة وجود وأول الأولويات. أما شمالا فتقع تجربة إنسانية ثرية وناجحة على كافة الأصعدة وبكافة المقاييس، خاضتها دول القارة الأوروبية وكان من ثمارها منظومة التفكير العلمى ومبادئ الديموقراطية وحقوق الانسان. وهى تجربة علينا الإنفتاح عليها والتعلم منها وإعتبارها من الموارد الفكرية لحركة الإصلاح المنشود.



النموذج الإرشادى للأهداف القومية للأمة المصرية

ولايقتصر تطبيق هذا النموذج على مستوى الأمة ككل بل يمكن تطبيقه على كافة المستويات. فعلى سبيل المثال فإن حال العديد من النقابات المهنية ينطبق عليه المثل المصرى "فاتت إبنها يعيط وراحت تسكت إبن الجيران" فنراهم يمدون العون لـ "علان وترتان" خارج الحدود ويتناسوا أن مهمتهم الأصلية هى الإرتقاء بالمهنة ومراقبة أخلاقيات ممارستها وأن "اللى يعوزه البيت يحرم على الجامع".

أما النموذج الإرشادى الثانى "نموذج التحديث اللغوى" فيعنى برد الإعتبار للغة المصرية الحديثة وتطويرها وتعزيز وجودها. إن حالة **"الإنفصام اللغوى"** التى يعانى منها المصريون، مابين لغة مقروءة ولغة محكية، هى العقبة الأساسية أمام محو الأمية الأبجدية لما يزيدعلى 50% من مجموع المصريين. هذه الأمية التى تحد من نشر المعارف وتعوق تنمية القدرات المعرفية للأمة المصرية.

"موضعة المتعولم" و لـ "عولمة المتموضع"

وأخيرا تهيئ "القومية المصرية" البيئة الثقافية المواتية لـ "موضعة المتعولم" و لـ "عولمة المتموضع". و"موضعة المتعولم" هى ترجمة للكلمة الإنجليزية Glocalization التى أشتقت من كل كلمتى "متعولم" Global وكلمة "موضعة" Localization لتعنى تعديل المنتج ذو المواصفات العالمية لتلائم الثقافة المحلية لمستخدمه. أما "عولمة المتموضع" فهى ترجمة للكلمة الإنجليزية Lglobalization المشتقة من كلمتى "متموضع" Local وكلمة "عولمة" Globalization لتعنى

تسويق ونشر المنتج المحلى، ماديا كان أو معنويا، الذى يحمل الخصائص المميزة للمجتمع الذى أنتجه على مستوى العالم ككل. ولعل أحدث وأبرز أمثلة "عولمة المتموضع" هى ما أحرزه الإنتاج الأدبى لنجيب محفوظ.

إن إحساس المصريين، الواضح الذى لالبس فيه، إنتمائهم لكيان قائم ومحدد الملامح هو الأمة المصرية لهو من الشروط الضرورية لتعزيز الولاء والإنتماء للوطن الأم ... مصر. هذا الشعور الذى إذا نجحنا فى غرسه وتجذيره فى نفوس المصريين سيجعل الحفاظ على التراث الثقافى للأمة المصرية، فرعونيا وقبطيا وإسلاميا، مهمة مقدسة و"فرض عين".

مراجع الفصل الخامس

[5-1] إبن أياس، **"بدائع الزهور فى وقائع الدهور"**، الجزء الأول-القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984

[5-2] أسمان، يان، **"ماعت: مصر الفرعونية وفكرة العدالة الإجتماعية"**، ترجمة د. زكية طبوزادة و د. علية شرف، دار فكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1996.

[5-3] جانكوفسكى، ج. و جرشولى، أ.، **"هوية مصر بين العرب والإسلام"**، ترجمة بدر الرفاعى، دار شرقيات، 1999.

[5-4] حجازى، أمنة، **"الوطنية المصرية فى العصر الحديث: نشأتها ونموها حتى عام 1914"**، الهيئة العامة للكتاب، 2000.

[5-5] حمدان، جمال، **"مختارات من شخصية مصر"**، مكتبة مدبولى، 1995.

[5-6] حمدى، أمين، **"الحياة القومية"**، ج2، بور سعيد، 1914.

[5-7] حنا، نللى، **"ثقافة الطبقة فى مصر العثمانية"**، الدار المصرية اللبنانية، ترجمة د. رؤوف عباس، 2003.

[5-8] الطبرى، محمد بن جرير، **"تاريخ الرسل والملوك"**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية، 1967، الجزء الربع، ص. 100.

[5-9] الطهطاوى، رفاعة رافع، **"التعريبات الشافية لمريد الجغرافية"**، دار الطباعة الخديوية، 1838.

[5-10] الطهطاوى، رفاعة رافع، **"المرشد الأمين للبنات والبنين"**، ط1، 1872.

[5-11] الطهطاوى، رفاعة رافع، **"مقدمة وطنية مصرية"**، مطبعة بولاق، 1866.

[5-12] الطهطاوى، رفاعة رافع، **"مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية"**، ط2، القاهرة، 1912.

[5-13] عمر، محمد، **"حاضر المصريين أو سر تأخرهم"**، مطبعة المقطف، 1902.

[5-14] فرج، أبو اليسر، الحاكم يأتى عبر البحر، مجلة الهلال، سبتمبر 2005، ص 32- 46.

[5-15] فهمى،خالد، **"كل رجال الباشا: محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة"**، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، 2001.

[5-16] هيكل، محمد حسين، مصر الحديثة والقديمة، السياسة الأسبوعية، 27 نوفمبر 1926، ص 10-11.

[5-17] كاشف، سيدة إسماعيل، **"مصر فى عصر الولاة"**، تاريخ المصريين ،14 الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988.

[5-18] Suleiman, Yasir, "**The Arabic Language and National Identity**", Edinburgh University Press, 2003.

مسك الختام

وبعد ... كانت هذه كلماتى ... القاصرة ... المقصرة ... فى حق أمتى المصرية وفى حق أهلى وناسى. كلماتى التى كابدت وجاهدت لتحمل حروفها الواهنة صدق الرسالة ... والرسالة عن مغزى القراءة ... القراءة فى أزمان أهلى وناسى ... وعن مغزى الإبحار فى تاريخ الأمة ... أم الدنيا ... مصر المحروسة.

وبعد أن أضنى الترحال روحنا وأشقانا التجوال فى جغرافيا تاريخها ... فرفعنا حينا إلى ذرى بلا نهاية ثم عاد ليهبط بنا إلى وديان بلا قرار ... كانت الخلاصة فى عبارة ... والعبارة لسيد شعراء "الصعاليك المصرلية" أحمد فؤاد نجم ... عبارة كثفت كلماتها كل الحكاية، فإذا بـ

الزمن شاب
وإنتى شابة
هو رايح
وإنتى جاية
معجبانية وصبية

معجم الألفاظ

أتابك	الأتابك كلمة تركية تعنى مربى الأمير، ومدبر المملكة، ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب "أتابك العسكر"
أقنوم	لفظة سريانية (وجمعها أقانيم) رأى آباء الكنيسة الأول إستخدامها إصطلاحيا لتعنى الصفات الذاتية التى تقوم بها الذات الإلهية
أوشابتى	تماثيل لأعوان وخدم النبيل توضع فى مقبرته لخدمته فى العالم الآخر
بوليرو	رقصة أسبانية ذات إيقاع سريع حاكى إقاعاتها العديد من مؤلفى الموسيقى الكلاسيكية ومن أشهرهم الموسيقار الفرنسى رافل
جامكية	كلمة فارسية الجراية الشهرية التى تمنح للأتباع
حكومة	إستخدمها الجبرتى بمعنى محكمة
خشداشية	مفردها خشداش التى تطلق على المملوك الذى ينشأ مع غيره فى خدمة سيد واحد
سارى (سر) عسكر	"سر" كلمة فارسية تعنى الرأس وقد إستخدمها الجبرتى للإشارة إلى قائد الحملة الفرنسية
لاهوت	كل مايتعلق بطبيعة وخصائص الذات الإلهية
مشاعلى	"الأصل فى المشاعلى أنه هو الذى يحمل المشعل بين يدى الأمير ليلا، ثم صار علما على الجلاد الذى ينفذ حكم الإعدام
ناسوت	كل مايتعلق بطبيعة وخصائص الذات الإنسانية
وطاق	الخيمة أو المعسكر المكون من خيم



نبذة عن المؤلف

د. السيد نصر الدين السيد

el-sayed@jmsb.concordia.ca
elsayed.abouzeid@gmail.com

- أستاذ إدارة المعرفة السابق بجامعة كونكوريا (مونتريال - كندا)
- عمل باحثا زائرا فى جامعة ولاية متشيجان بالولايات المتحدة الأمريكية
- حاصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية النظرية من جامعة الإسكندرية
- عمل أستاذا ورئيسا لقسم نظم المعلومات بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا
- قام بتدريس علوم الكمبيوتر والمعلومات بجامعتى الإسكندرية والمنوفية
- عضو العديد من الهيئات الدولية المعنية بعلوم الحاسب والمعلوماتيات (الإتحاد الدولى لمعالجة المعلومات IFIP، رابطة الآلات الحاسبة الأمريكية IEEE Computer Society، جمعية المهندسين الأمريكية للحاسب ACM)
- شارك فى تنظيم وفى عضوية لجان تحكيم العديد من المؤتمرات الدولية حول علوم الحاسب والمعلوماتيات
- شارك فى حربى 1967 و 1973 أثناء خدمته كضابط عامل بالقوات البحرية المصرية
- عضو مؤسس لـ "جماعة تحوتى للدراسات المصرية"

المؤلفات

- **القومية المصرية، قراءة فى وضوح البداهة**، الطبعة الأولى، كتاب اليوم، القاهرة، 1991
- (مع آخرين) **الحاسبات الإلكترونية، حاضرها ومستقبلها**، كتب دلتا، القاهرة، 1992
- (مع آخرين) **الحاسب والذكاء الإصطناعى**، كتب دلتا، القاهرة، 1994
- **إطلالات على الزمن الآتى**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، الطبعة الثانية، 1998
- **الحقيقة الرمادية**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999
- **كيف يفكر الحاسب**، دار العين للنشر، 2006
- **التنوير الغائب**، دار العين للنشر، 2006
- **المنظوماتية: العقلانية الجديدة لحضارة الألف الثالثة**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2007
- **وداعا أرسطو**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2007
- **الإنتظام الذاتى: إنبثاق النظام من الفوضى**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2008
- **الحياة الإصطناعية: الحياة كما يمكن أن تكون**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2008
- **زمن المابعد**، نهضة مصر، 2009
- **أحوال مصرية: الأمة بين ثقافة الوطن وثقافة الملة**، مكتبة مدبولى، 2010
- **ثقافتنا المعاصرة: التحديث أو الكارثة**، دار المحروسة ،2010
- **الإبتكار وإدارته**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2010
- له العديد من المقالات المنشورة فى الصحف والمجلات المصرية والعربية حول موضوعات **"حضارة الألف الثالثة، و"العقلانية الجديدة"** (الأهرام اليومى، الهلال، أكتوبر، روزا اليوسف، القاهرة، أخبار الأدب، العربى الكويتية)